الخطوة الثانية للحياة الطيبة

صلاح القلوب

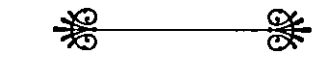

إن الناظر في أحوال أكثر الناس يرى أمرًا عجبًا، يرى إعتناءً فائقًا بتحسين الظواهر، وتجميلها، وتزيينها بأنواع المحسنات والمجملات، وفي الوقت نفسه يرى غفلة مطبقة، وذهولًا تامًا عن تزيين البواطن وإصلاحها، فكم هي الأوقات والجهود والطاقات التي تصرف لتحسين المظاهر مع الغفلة التامة عن إصلاح القلوب والبواطن؟!

حتى غدا كثير من الناس ليس له هِمَّةً إلا في جمال مظهره وحسن مطلعه، فصدق فيهم قول الله في وصف المنافقين ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾[1]، فهذه حال قوم كانت مناظرهم بهية وأقوالهم خلابة ولم يخرجهم ذلك من كونهم خُشب مسندة لا نفع فيها. فتلك مناظر لا مخبر لها، وأجرام لا أفهام لها، وهذه حالة دنية لا يرضاه مؤمن لنفسه. بل لا يتم إيمان المؤمن، ولا يصح إلا بإصلاح باطنة، وتزكية قلبه وتطييبه.

عن سعد بن الحسن التميمي قال كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرف من بين عبيده يعني من التواضع في الزي، وإنشغاله بإصلاح باطنه.

فجمال الظاهر وحسنه لا يغني عن العبد شيئًا إذا كان باطنه وقلبه فاسدًا قبيحًا، والدليل قول الله عز وجل في الرد على قوم غرهم حسن أحوالهم وجمال مظهرهم، فجعلوا ذلك دليل على حسن عاقبتهم﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ

(١)سورة المنافقون آية ٤.

أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [١] ،فأخبر سبحان وتعالى أنه أهلك أقوامًا من قبل كانوا هم أحسن صورًا، وأكثر مالًا، وأجمل أشكالًا، فما أغنى عنهم ما كانوا يُمتعون... وأقرأ قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [٢] . فجمال الباطن وسلامة القلب هو الأصل، والأساس الذي يبنى عليه الفلاح في الدنيا والآخرة، واقرأ قول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [٣] .

ولن يتحقق للعبد التزين بلباس التقوي، والتحلي به إلا بإصلاح قلبه وتزكيته وتطييبه.

فقلبك أمره عظيم، وشأنه جليل، ويجب العناية به لما صرح به النَّبي ﷺ من حديث أبي هريرة قال قال النَّبي ﷺ " **التَّقْوَىٰ هَا هُنَا ، التَّقْوَىٰ هَا هُنَا ، التَّقْوَىٰ هَا هُنَا، وَأَشَارَ إِلَىٰ صَدْرِهِ** ﷺ " [٤] ، فإنما أشار في الصدر لأنه محل القلب، والقلب محل التقوى، وما أنزل الله الرسل والكتب إلا لإصلاح القلب وتزكيته... إقرأ قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [٥].

وقال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن

---

(١) سورة مريم آية ٧٤ .
(٢) سورة غافر آية ٢١ .
(٣) سورة الأعراف آية ٢٦.
(٤) رواه مسلم .
(٥) سورة يونس آية ٥٧ .

كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]. فأعظم ما جاء به الرسول ﷺ إصلاح القلوب، كذلك لا سبيل لتزكية القلوب، وإصلاحها إلا من طريقه ﷺ .. **ولماذا القلب؟!.** لأنه محل المعارف، به يعرف العبد ربه ومولاه، وبه يعرف أسماءه وصفاته،، وبه يتدبر آيات الله الشرعية قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]، وبه يتدبر آيات الله الكونية في الآفاق، وفي الأنفس قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[3]، **لماذا القلب؟!.** لأنه للعبادة التامة أركان أربعة حيث بنيت ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان، وقول القلب، وعمل القلب، وعمل والجوارح.

فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع:

قول القلب: وهو إعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله.

قول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره.

عمل القلب: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه،، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره والرضا به، والمولاة فيه والمعاداة فيه، والذل له، والخضوع والإخبات إليه، والطمأنينه به، وغير ذلك من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

وعمل الجوارح، كالصلاة، والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات،

(١) سورة آل عمران آية ١٦٤ .
(٢) سورة محمد آية ٢٤ .
(٣) سورة الحج آية ٤٦ .

ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك..

لماذا القلب ؟! لأن القلب هو المطية التي يقطع بها العبد سفر الآخرة، فإن السير لله تعالى سير القلوب لا سير الأبدان.

روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك ﷺ، قال رجعنا من غزوة تبوك مع النَّبي ﷺ، فقال " **إِنَّ أَقْوَامًا خَلْفَنَا بِالْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**" (١) .

وفي رواية " **إِلَا شَارَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ** " . فهؤلاء قوم من الصحابة مع رسول الله ﷺ بأرواحهم وبدار الهجرة (المدينة) بأشباحهم وهذا من الجهاد بالقلب حيث مراتب الجهاد أربع القلب واللسان والمال والبدن...

فليست الفضائل بكثرة الأعمال البدنية ولكن بكونها خالصة لله تعالى، متابعة للسُنَّة، وبكثرة معارف القلوب وأعمالها.. ولقد علمنا ما سبق أبو بكر الصديق ﷺ بكثرة الصوم والصلاة ولكن بشيء وقر في صدره.

وفي الصحيحين من حديث النعمان بن بشير ﷺ، قال : قال رسول الله ﷺ " **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ. أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ** " (٢) ، فعبادة القلب هي الأصل الذي يبنى عليه جميع العبادات، فصلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، فإذا صلح القلب بالتقوى صلح الجسد بالإذعان والطاعة.

ولن يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، لذلك علق العليم الخبير النجاة يوم القيامة على سلامة القلب فقال ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٣).

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) سورة الشعراء آية ٨٨ - ٨٩.

لماذا القلب؟! لأن من أبرز سماته التقلب والتعرف، روى الإمام أحمد في حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " **لَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ أَشَدُّ إِنْقِلابًا مَنْ الْقَدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ غَلَيَانًا** " (١) ، ثم قال المقداد إن السعيد من جنب الفتن يرددها ثلاثًا وهو يشير إلى أن سبب التقلب ورود الفتن على القلب. لذلك كان أكثر دعاء النَّبي ﷺ : " **اللَّهُمَّ يَا قَلْبُ الْقُلُوْبُ ثَبِّتْ قَلْبِيْ عَلَى دِيْنِكَ، اللَّهُمَّ إِنِّيْ أَسْأَلُكَ قَلْبا سَلِيْمًا** " كل هذا لأن ذلك القلب عظيم، وزيغه خطير، فإن أهونه ميل عن الله ومنتهاه ختم وطبع وموت.. نسأل الله العفو والعافيه.

* ألا يستحق هذا القلب وقفه نظر وتأمل منك؟!.

* ألا يستحق هذا القلب وقفه تفتيش وتحقيق؟!.

* ألا يستحق هذا القلب وقفه تعلم فيها ما حواه وما وقر فيه؟!، قبل يوم تبلى فيه السرائر، ويبدد فيه مكنون الضمائر، أقر قول الله: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (٢).

فلنجتهد في حفظ قلوبنا وإصلاحها، ولننظر فيها دون كلٍّ ولا ملل، فإن قلبك أعظم أعضائك خطرًا، وأكثرها أثرًا، وأشقها إصلاحًا. واعلم أن مثال القلب مثل الحصن، والشيطان عدو يريد أن يقتحم الحصن، ثم يدمره، فكان حري بالمسلم حماية قلبه من ذلك العدو اللدود، ولايتم ذلك الا بمعرفة مداخله، ومداخل الشيطان على قلب العبد كثيرة أهمها وأعظمها الغضب، فكلما غضب الإنسان لعب الشيطان به، . والحسد والحرص فكلما كان العبد حريصا أعماه حرصه وأصمه، ونور البصيرة هو الذي يعرَف مداخل الشيطان، فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر، فيجد الشيطان فرصة، قال ﷺ : " **مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِيْ غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ**

(١) رواه أحمد و الحاكم في السلسله الصحيحة .
(٢) سورة العاديات أية ٩-١١ .

لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالْشَّرَفِ، لِدِيْنِهِ" (١)، ومن مداخل الشيطان الشبع من الطعام، وإن كان حلالاً صافيا، فالشبع يقوي الشهوات، والشهوات أسلحة الشيطان ، ومن مداخل الشيطان العجله، وعدم تبين الأمور، ومن المداخل البخل وخوف الفقر، فإن ذلك مانع للإنفاق والتصدق، وداعى لإكتناز الأموال، ومايعقبه من العذاب الأليم، ومن مداخله التعصب للمذاهب والأهواء، فذلك مما يهلك العباد التقي منهم والفاجر، ومن المداخل سوء الظن بالمسلمين، فالمؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب، وعلاج ذلك كله تطهير القلب من هذه الصفات المذمومة، وعندها سيكون للشيطان في القلب إجتيازات وخطرات، ولم يكن له إستقرار ...وللقلب أمراض ، واعلم أن إصلاح القلب وإستقامتها لا يحصل إلا بتخليته من تلك الأمراض وحفظه من الآفات التي تفسده.

تلك الأمراض والآفات خمسة، هي مصدر كل بلاء، من سلم منها فقد سلم :

١ – الشرك.

٢ – البدعة ومخالفة السُنَّة

٣ – الشهوات ومواقعة السيئات.

٤ – الشبهات.

٥ – الغفلة.

الآفة الأولى : الشرك بالله تعالى :

آفة دقيقة وجليلة، صغيرة وكبيرة، فإن الشرك ظلم عظيم، وهو أصل كل فساد وشر، يظلم به القلب، ويموت ويهلك. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٢) ، فالمؤمنون الذين صدقوا

(١)رواه الترمذي ٢٣٦٧ وحسنه الألباني
(٢)سورة الأنعام آية ٨٢ .

في إيمانهم فلم يخلطوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن التام والإهتداء التام من رب العالمين.

وقال تعالى: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾[1].

فالقلب لا سلامة له، ولا إصلاح إلا بتوحيد الله وحده لا شريك له، فبقدر ما مع الإنسان من صدق التوحيد، وسلامة الإعتقاد، بقدر ما يحصل له من سلامة الصدر، وصلاح القلب. فالقلب إنما خلق لمعرفة فاطره، ومحبته وتوحيده، وأن يكون أحب إليه مما سواه، فصلاح القلب في أن يحصل له وبه المقصود الذي خلق له، من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وفساده في ضد ذلك.

الآفة الثانية: البدعة ومخالفة السُنَّة:

إعلم أن البدعة لا تزيد صاحبها من الله إلا بعدًا، وهي تفسد القلوب، وتعطلها عما ينفعها ويزكيها، فخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.. فإذا إمتلاء القلب بالبدع، أظلم وفسد تصوره، فأنى تحصل له السلامه ؟!

قال الفضل بن عياض -رحمه الله- : " من جلس مع صاحب بدعة، أورثه الله العمى" يعني في قلبه نعوذ بالله من ذلك. وقد جعل النَّبي ﷺ من أسباب طهارة القلب من الغل والهوى، لزوم جماعة المسلمين، وذلك بعدم الخروج عنهم ببدعة أو ضلالة.

الآفة الثالثة: إتباع الشهوات ومواقعة السيئات:

الشهوات والسيئات من أعظم أسباب فساد القلب وهلاكه ، قال تعالى مبينًا أثر محبة الشهوات وإتباعها: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

---

(٢) سورة آل عمران آية ١٥١.

(٢)سورة الجاثية آية ٢٣ .

انظر كيف أن إتباع الشهوات يسبب الختم على القلب، ثم أنظر وتأمل وتدبر كيف سرى أثر هذا الختم والغطاء على القلب إلى سائر أعضاء الجسد ؟! وجعل على بصره غشاوة! فمن يهديه من بعد الله ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ! فاحذر يا من ترجو سلامة قلبك.. احذر مرض القلب بالشهوة واعلم أن الشهوات هي كل ما تميل إليه النفس من غير تعقل، ولا تبصر، ولا مراعاة لدين، ولا مراعاة لمروءة، ذلك المرض يورد المهالك والمعاطب.. قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

فالذنوب تعمى القلوب، ولذلك فمن أنفع أدوية القلب الصبر عن معصية الله، فالحذر الحذر من معصيه الله، فإنها سيئة العواقب.

رأيت الذنوب تميت القلوب ∴ وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ∴ وخير لنفسك عصيانها

روى الإمام مسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةُ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةُ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ، مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"[2].

فالمعاصي تحيط بالقلب من كل جانب فإذا إتبع الإنسان هواه، وارتكب المعاصي، دخل قلبه بكل معصية ظلمة، فإذا أصر ولم يقف توالت عليه الظلمات وزادت فتزداد بذلك حيرته، وتزيد شقوته، ويقع في الهلكات وهو لا يشعر، وتقوى ظلمة القلب حتى تعلو وجه صاحبها، وتصير سوادًا يراه كل أحد.

(١) سورة المطففين آية ١٤.
(٢) رواه مسلم.

*قال ابن عباس رضي الله عنهما " إِنْ لِلْحَسَنَةِ نُورا فِيْ الْقَلْبِ، وَضِيَاءً فِيْ الْوَجْهِ، وَقُوَّةً فِيْ الْبَدَنِ، وَسَعَةً فِيْ الرِّزْقِ، وَمَحَبَّةً فِيْ قُلُوْبِ الْخَلْقِ ، وَإِنْ لِلسَّيِّئَةِ لَظُلْمَةً فِيْ الْقَلْبِ، وَسَوَادا فِيْ الْوَجْهِ، وَوَهْنا فِيْ الْبَدَنِ، وَبُغْضا فِيْ قُلُوْبِ الْخَلْقِ " (١) .

وهذه الأمور. هذا البياض وذاك السواد – اللذان ذكرهما الرسول ﷺ في الحديث قد يدركهما ذو البصائر في الدنيا، إلا أنها تظهر في وجوه أصحابها ظهورًا تامًا بينًا لا لبس فيه، ولا غبش فيه يوم القيامة، يوم تبلى السرائر، ويظهر مكنون الضمائر، كما قال جل وعلا: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾(٢).

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (٣). إن الذنوب كلها، دقيقها وجليلها تفسد القلوب. وتعكر صفوها لذلك أمر الله تعالى بتركها قال : ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ (٤).

فواجب كل مؤمن أن يترك الذنوب الظاهرة والباطنة ، من ذلك: الرياء والعجب والحسد وإطلاق البصر في المحرمات، ذلك الذي يفسد القلب، ويطفيء نورها، لذلك أمر الله بحفظ البصر فقال ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (٥).

(١) مرفوعًا عن ابن عباس دون سند .
(٢)سورة الزمر آية ٦٠-٦١ .
(٣)سورة آل عمران ١٠٦:١٠٨ .
(٤)سورة الأنعام آية ١٢٠ .
(٥)سورة النور آية ١٣٠ .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ (١) ، فمن حفظ بصره أن يقع على محرم، عوضه الله بصيرة نافذة، وقلبًا سليمًا قويًا. وسماع الأغاني والمعازف، فإنه يفسد القلب، يقول ابن مسعود " إن الغناء ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل " فالغناء والمعازف يثقل على القلب التفكر في آيات الله تعالى، ويثقل على الأذن سماع القرآن، ويثقل على البدن الطاعة والإحسان. قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾(٢)، فسر العلماء لهو الحديث بالغناء. فالحذر الحذر من سماع المعازف والألحان، وإياك والإغترار بحال أكثر الناس، فإنه يصدق عليهم قول الله تعالى ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) ، وعليك بالدعاء " اللهم طهرني من خطاياي بالماء والثلج والبرد " فإن الخطايا صغيرها وكبيرها توجب للقلب قذرًا وكدرًا يحتاج معها إلى التطهير..

الآفة الرابعة : الشبهات :

التي تعمى عن الحق، وتضل الخلق، فهي داء خطير، يذهب لذة الإيمان، ويزكي وساوس الشيطان، وتمنع صاحبها الإنتفاع بالقرآن والسُنَّة. قال جلا وعلا ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ (٤) .

فهم لا ينتفعون من كتاب الله، ولا ينتفعون من سُنَّة رسول الله، لأن نظرهم في الكتاب والسُنَّة لا لطلب الهدى، بل التشكيك والتضليل والتشبيه ، فيجب الحذر من الشبهة وأهلها، فإنها تتوارد على القلب حتى توردة المهالك، فمآلها إما

(١)سورة الأحزاب آية ٥٣ .
(٢)سورة لقمان آية ٦ .
(٣) سورة الأنعام آية ١١٦ .
(٤)سورة آل عمران آية ٧ .

إلى كفر أو إلى نفاق، ولا تزال الشبهات تغزو بالقلب حتى يشحط بينهن قتيلا. فإحذر السمع للشبهه وأهلها، ولا تجلس إليهم بل معاملتهم بما أمر الله ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾[1].

فأهل الشبهات أعظم الخائضين في آيات الله بالباطل، فإياك أن تجلس مع من يفسد عليك قلبك، ولا تجلس مع صاحب هوى، فإني أخاف عليك مقت الله، ولا عجب فإن أهل الشبهة يشككون المؤمن في دينه، وفيما أخبر الله به ورسوله، يردون المحكم إلى المتشابه، وهذا ضلال، فسروا المتشابه بهواهم والمحكم لم يقدروا عليه. مثل ما أحتج النصارى بـأن القرآن نطق بأن عيس روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم ورح منه، وتركوا قول الله ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾[2]. وقوله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾[3].

وغير ذلك من الآيات المحكمة بأنه عبد ومخلوق، وهم الخوارج، والقدرية، والمعتزلة، والجهمية، وتلك الفرق الضالة، وغيرهم ممن يحاولن التشكيك في القرآن من المستشرقين.

الآفة الخامسة: الغفلة:

هي سهو يعتري القلب، يعميه عن أخذ ما ينفعه وترك ما يضره، وهي أصل الكثير من الشرور، مع ذلك هي من أكثر الخصال إنتشارًا في الناس . نسأل الله العفو والعافية .

(١) سورة النساء آية ١٤٠ .
(٢) سورة الزخرف آية ٥٩
(٣)سورة آل عمران آية ٥٩

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ (١) .

وهي داء حظر الله منه، ونهى عن صحبة أهلها ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (٢) ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٣) ، فالغفلة تذهل القلب عما يزكيه، وعما ينفعه، وعما يحيه وينميه وعما يصلحه.

ها هي الأمراض بين يديك، فالله الله في العزم على توقِّيها، والأخذ بالأسباب للسلامة منها. فإن صلاح القلب واستقامته، لا يأتي إلا بأسباب لابد من الأخذ بها، وأبواب لابد من طرقها ودخولها، فالنتائج مربوطة بمقدماتها. فمن رجا النجاة من هذه الآفات الكبرى شمَّر لها ، فإن السفينة لا تجري على اليابس، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾(٤). فاحفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك.

روى البخاري في صحيحة حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ " **قَالَ اللَّهُ إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَىَّ شِبْرا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِىْ يَمْشِىَ أَتَيْتُهُ هَرْوَلا** " (٥)، وقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٦)، فالعزم العزم، والبدار البدار في طلب النجاة من هذه الآفات، قال ﷺ : "**وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**"(٧).

ووالله من أهمَّه أمر دينه، وأنتبه من رقدة الغفلة، ورجا أن يكون يوم القيامة من الناجين، حرص على معرفة سلامة القلب، وطرق علاجه بعد توقي أسباب هلاكه.

(١)سورة يونس آية ٩٢ .
(٢)سورة الأعراف آية ٢٠٥ .
(٣)سورة الكهف آية ٢٨ .
(٤)سورة الطلاق آيه ٤ .
(٥) رواه البخاري ومسلم .
(٦) سورة العنكبوت آيه ٦٩ .
(٧) رواه البخاري .

ما هي طرق علاج أمراض القلب ؟ أو كيف يكون صلاح القلب ؟

أولًا : القرآن. ثانيًا : التوبة.

الدواء الأول: القرآن العظيم والكتاب الحكيم :

إن الوسيلة الأولى لإصلاح النفس، وتزكية القلب، والوقاية من المشكلات وعلاجها هو العلم، ووسيلته الأولى القراءة والكتاب، لذلك نجد أن الله تعالى لما أراد هداية الخلق، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، أنزل إليهم كتابًا يُقرأ، وفي أول سورة نزلت فيه بدأت بكلمة عظيمة، هي مفتاح الإصلاح لكل الناس، مهما أختلفت الأزمان، وتباينت البلدان، إنها (إقرأ)، وعليه فمن أراد النجاح وتزكية النفس، والإصلاح فلا طريق سوى الوحيين القرآن [٦٠٠ صفحة] والسُنَّة [٦٠٠٠٠٠ حديث في البخاري] قراءة وحفظًا وتعلمًا وتدبرًا...

ولو تأملنا في حال السلف بدأً من النَّبي ﷺ، وإنتهاءً بالمعاصرين من الصالحين، لوجدنا أن القاسم المشترك بينهم، هو القيام بالقرآن، وفي صلاة الليل خاصة... والعمل المتفق عليه عندهم الذي لا يرون التهاون به في أي حال، هو الحزب اليومي من القرآن.

عن ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال : " **مَنْ نَامَ حِزْبَهُ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ** "(٨).

إنه الحرص على عدم فواته، مهما حالت دونة الحوائل، لأنهم يعلمون يقينًا أن هذا هو غذاء القلب الذي لايحيا بدونه، فهم يحرصون على غذاء القلب قبل غذاء البدن، ويعلمون يقينًا أن هذا هو دواء أمراض القلب فهم يحرصون على دواءالقلب قبل دواء البدن، ويشعرون بالنقص متى حصل شيء من ذلك، بعكس المفرطين

(٨) رواه مسلم .

الذين لا يشعرون إلا بجوع أبدانهم وعطشها ومرضها وألمها، أما ألم القلوب[١]، وعطشها وجوعها فلا سبيل لهم للإحساس به، الشاهد أن: قراءة القرآن في صلاة الليل هي أقوى وسيلة لبقاء التوحيد والإيمان غضًا نديًا في القلب.

وأنها المنطلق لكل عمل صالح آخر من صيام وصدقة وجهاد وبر وصلة، والدليل لما أراد ربنا تبارك وتعالى تكليف نبيه محمد ﷺ، بواجب التبليغ والدعوة، وهو حمل ثقيل جدًا، وجهه إلى ما يعينه عليه، وهو القرآن بالقرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ ﴾[٢].

لقد كثر في زماننا هذا، الحديث عن النجاح والسعادة والتفوق والإصلاح، كثرت فيه (المولفات) وكل يدعي أن في كتابه أو برنامجه الدواء الشافي، والعلاج الكافي، وأنه الكتاب الذي لا تحتاج معه إلى غيره، والحق أن هذا الوصف لا يجوز به إلا كتاب واحد وهو القرآن العظيم.

إعلم أنه إذا تعلق العبد قلبه بكتاب ربه، فتيقن أن نجاحه و نجاته وسعادته وقوته وصلاح قلبه في قراءته وتدبره، وتكون هذه البداية في سلم الفلاح في الدنيا والآخرة، ولكن كيف أنتفع بالقرآن؟! .

إن سلفنا الصالح سلكوا مسلكهم في التعامل مع القرآن العظيم، والتي بسبب غفلة الكثيرين عن ذلك المسلك أصبحوا لا يتأثرون ولا ينتفعون بما فيه من الآيات والعظات والأمثال والحكم. ففهم القرآن وتدبره، والقدرة على الإنتفاع به، مواهب من الكريم الوهاب، يعطيها لمن صدق في طلبها، وسلك الأسباب الموصلة إليها بجد واجتهاد. أما المتكيء على أريكته، المنشغل بشهوات الدنيا، ويريد فهم القرآن،

(١) رواه مسلم ٧٤٧ .
(٢)سورة المزمل آية ١:٧ .

وتدبره والإنتفاع به، هيهات هيهات، ولو تمنى على الله الأماني.

*عن عبد الرحمن بن مسعود عن أبيه قال " أتاه رجل فقال يا أبا عبد الرحمن، علمني كلمات جوامع نوافع، فقال له عبد الله :لاتشرك به شيئًا وزُل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فأقبل منه، وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل فارددده عليه، وإن كان حبيبًا قريبًا" . فالقرآن أبلغ موعظة ، لمن؟! لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، كما يقول الله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١) ، فإن من الناس من يكون حيَّ القلب، واعيه تام الفطرة، فإذا فكر بقلبه، وجال بفكره، دله قلبه وعقله على منافع القرآن، فهذا نور الوحي على نور الفطرة إجتمعا، فتم الإنتفاع بالقرآن، يقول: ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ ﴾ إشارة إلى شرط التأثير، ووجه سمعه لما يقال. يقول : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ إشارة إلى إنتفاء ما يمنع التأثير (عدم وجود الغفلة) أي شاهد القلب حاضر غير غائب هنا يحصل الأثر والإنتفاع بالقرآن، إعلم رحمك الله أن الوسائل التي سلكها السلف للإنتفاع بالقرآن ليست مجموعة نظريات أو فرضيات، وإنما خواطر عمليه تحتاج إلى تدرج وتكرار وتنفيذ حتى تصل فيها إلى نتائج وثمرات.

* قال ثابت البناني (كابدت القرآن عشرين سَنَة، ثم تنعمت فيه عشرين سَنَة) وهذا حق، فقف عند الباب حتى يفتح لك إن كنت تدرك عظمة ما تطلب. فإنه متى فتح لك ستدخل إلى عالم لا تستطيع الكلمات أن تصفه، ولا العبارات أن تصور حقيقته، أما أن إستعجلت وأنصرفت فستحرم نفسك من كنز عظيم، وفرصة قد لا تدركها فيما تبقى من العمر..ما هو محور المشكلة والبحث ؟! .

نحن نؤمن ونصدق بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١)سورة ق آية ٣٧ .

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1] .

ونقرأ قول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[3] .

* هذا هو القرآن ونحن نقرأه ، ولكن ما أخبر الله عنه من تأثير فإننا لا نجده ! **فلماذا ؟!.**

* القرآن هو القرآن، وقد وصل الينا والحمد لله محفوظًا تمامًا، مصونًا من الزيادة والنقص.

* أين الخلل وأين المشكلة ؟! في كل تأثير عندنا ثلاثة أركان: المؤثر والمتأثر والموصل.

المؤثر: هو القرآن وأثره ثابت لا شك فيه، بقى الإحتمالين في الموصل، والمتأثر. الموصل هو القراءة والتدبر، والمتأثر هو القلب قلب المتلقي والمتأثر.

فالبحث يحاول إستكشاف الخلل في الجهتين، ويقترح الحلول المبنية على تجارب الناجحين من تحصيل التأثير والأثر.

أيضًا الفتح والفهم في وقت، وإغلاقه في وقت أخر. أحيانًا تقرأ الآيه فتتأثر بها، وفي وقت أخر تعود إليها لا تحس ولا تنتفع ولا تشعر بنفس المعاني التي تدفقت قبل ذلك ما السبب؟!، وما السر؟! ،وما معنى التدبر ؟ ،وعلاماته ؟، وبيان الخطأ

(١) سورة الحشر آية ٢١ .
(٢) سورة الزمر آية ٢٣ .
(٣) سورة التوبة آية ١٢٤ .

في مفهومه؟، وما مفاتحه؟ .

التدبر هو التفكير الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم، ومراميه البعيدة، فمعنى تدبر القرآن العظيم أن تتفكر وتتأمل لآيات القرآن من أجل فهمه، وإدارك معانيه، وحكمته والمراد منه، والتدبر يولد الأفكار لا مجرد تلاوته، بلا فهم ولا تدبر.

قال الله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾(٢).

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ ﴾(٤)... فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع منه الفكر على معاني آياته، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتها وأسبابها وغايتها وثمراتها ومآل أهلها، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتريه صورة الدنيا والآخرة، والجنة والنار في قلبه، وتريه أيام الله في الأمم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله، وفضله وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطة الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصل إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه، فهذه سته أمور

---

(١) سورة ص آية ٢٩.
(٢) سورة محمد آية ٢٤ .
(٣) سورة المؤمنون آية ٦٨.
(٤) سورة الزخرف آية ٣.

ضروري للعبد معرفتها، ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبة عن الدنيا حتى كأنه ليس منها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما أختلفت فيه العالم، فتريه الحق حقًا، والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا أو نورًا يفرق به بين الهدى والضلال، وتعطيه قوةً في قلبه، وحياةً واسعةً، وإنشراحًا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأن، والناس في شأن أخر، هذه هي الحياة الطيبة...

علامات التدبر:

ذكر ربنا تبارك وتعالى في كتابه الكريم علامات، ، وصفات تصف حقيقة تدبر القرآن منها: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾[4].

وقوله تعالى ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾[5].

(١) سورة المائدة آية ٨٣ .
(٢) سورة الأنفال آية ٢ .
(٣) سورة التوبة آية ١٢٤ .
(٤) سورة الإسراء ١٠٩ .
(٥)سورة مريم آية ٥٨ .

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (٢).

نحصل من الآيات السابقة سبع علامات للتدبر:

* إجتماع القلب والفكر حين القراءة، ودليله التوقف تعجبًا وتعظيمًا.
* البكاء من خشية الله.
* زيادة الخشوع.
* زيادة الإيمان ودليله التكرار العفوي للآيات.
* الفرح والإستبشار.
* القشعريرة خوفًا من الله ثم غلبَة الرجاء والسكينة.
* السجود تعظيمًا لله عز وجل أثناء القراءة للقرآن العظيم.

فمن وجد واحدة من هذه الصفات أو أكثر فقد وصل إلى حالة التدبر والتفكر.

أما من لم يحصل له أي من هذه العلامات، فهو محروم من تدبر القرآن، ولم يصل بعد إلى شيء من كنوزه وزخائره. واعلم أنه من أوتى من العلم ما لا يبكيه، لخليق الأ يكون أوتى علمًا، لأن الله نعت العلماء فقال ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٣).

(١) سورة الفرقان آية ٧٣.
(٢) سورة الزمر آية ٢٣.
(٣) سورة الإسراء آية ١٠٧:١٠٩.

كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرئ عليهم القرآن، كما نعتهم الله تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، هكذا أخبرت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها ، فإعلم أن كل يوم يمر بنا، ولا يكون لنا نصيب ورزق من هذه العلامات، فقد فاتنا ربح عظيم، وهو يوم حري أن يُبكى على خسارته، فمن لم يبك خشوعًا وتأثرًا بآيات القرآن العظيم، سيبكي ندمًا على فوات الإنتفاع به...نسأل الله العفو والعافية وللأسف كثير من المسلمين ينصرفون عن تدبر القرآن، والتفكر فيه، اعتقاد منهم صعوبة فهمه، وقد قال الله ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

يقول ابن القيم -رحمه الله-: من قال أن له إي القرآن تأويلًا لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج .. فالصحيح والحق أن القرآن معظمه واضح وبيِّن وظاهر لكل الناس.

كما قال ابن عباس رضي الله عنه مترجم القرآن التفسير على أربعة أوجه :

* وجه تعرفه العرب من كلامها.
* وتفسير لا يعذر أحد بجهالته.
* وتفسير يعلمه العلماء.
* وتفسير لا يعلمه إلا الله.

ومعظم القرآن من القسمين الأولين، فعدد الأحكام في القرآن خمسمائة آية، وعدد آيات القرآن ٦٢٣٦ آية. إن فهم الوعد والوعيد الترغيب والترهيب والعلم بالله وباليوم الآخر، لا يشترط له فهم المصطلحات العلمية الدقيقة النحوية والبلاغية والفقهية، فمعظم القرآن بين واضح ظاهر، يدرك معناه الصغير والكبير، والعالم والأمي، فحينما سمع الإعرابي قول الله ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ

(١)سورة القمر آية ١٧ .

مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [١] ، قال من ذا الذي أغضب الرب الجليل حتى أقسم؟! وحينما أخطأ إمام في قراءة ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [٢] ، قرأها من تحتهم صوب له خطأه إمراة عجوز لا تقرأ ولا تكتب!

إن إغلاق عقولنا عن تدبر القرآن بحجة عدم معرفة تفسيره، والإكتفاء بقراءة ألفاظه، من مداخل الشيطان على العبد،ليصرفه عن الإهتداء به، وإذا سلمنا بهذه الحجة فإن العقل والمنطق والحكمة أنك إذا أشكل عليك معنى آية،أن تبادر وتسارع البحث عن معناها، والمراد بها، لا أن تغلق عقلك، وتقرأ دون تدبر، أو تترك القراءة فهما منك أن القرآن له مقرئين من الدعاة وغيرهم. والآن كيف تنتفع بالقرآن؟!.

وكيف يكون القرآن دواء للقلب ؟!

أولاً : حب القرآن

ثانيًا: تحديد هدفك منه.

ثالثًا: القيام به.

رابعًا: قراءته ليلاً .

خامسًا: تحزيبه إسبوعيًا.

سادسًا: حفظه.

سابعًا : تكرار الآيات في القراءة.

ثامنًا: ربط اللفظ بالمعني.

تاسعًا: ترتيله.

(١) سورة الذاريات آية ٢٤ .
(٢) سورة النحل آية ٢٦.

عاشرًا: الجهر به .

أولًا حب القرآن :

نعلم أن القلب آله الفهم والعقل، وهناك نصوص قرآنية كثيرة، تزيد على مائة آية، تدلنا على أن القلب هو آله الفهم للقرآن، وإقرأ منها:

قول الله ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ (١) .

وقوله تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٢) .

المقصود إن القلب آله الفهم للقرآن وتدبره، وهو بيد الله عز وجل يفتحه متى شاء، ويغلقه متى يشاء، والله يحول بين المرء وقلبه، وأنه يصرف عن آياته الذين يتكبرون، فالعبرة أن الفتح من الله بداية، وما يحصل من التدبر فهو نعمة عظيمة من الله تستوجب الشكر لا الفخر، فمتى أعطاك الله فهم القرآن، وفتح لك معانيه فاحمد الله واسأله المزيد، وانسب هذا الفتح له وحده.

والسؤال ما علاقة حب القرآن بالتدبر ؟! من المعلوم أن القلب إذا أحب شيئًا تعلق به، وأشتاق إليه وأنقطع عما سواه.والقلب إذا أحب القرآن تلذذ بقرائته، واجتمع على فهمه ووعيه، فيحصل بذلك التدبر، والفهم العميق، وبالعكس إذا لم يوجد الحب فإن إقبال القلب على القرآن يكون صعبًا، وإنقياده إليه يكون شاقًا لا يحصل إلا بمجاهدة.. وعليه فإن حب القرآن من أنفع الأسباب لحصول أقوى وأعلى مستويات التدبر.. والآن كيف لي أن أقيم قلبي هل هو من المحبين للقرآن أم لا ؟.

---

(١) سورة الكهف آية ٥٧ .

(٢) سورة الحج آية ٤٦ .

ماهي علامات حب القرآن؟!

* الفرح بلقائه.

* الجلوس معه دون ملل لأوقات طويلة.

* الشوق إليه متى بعدت عنه، وحال دون ذلك بعض الموانع، وتتمنى لقاءه ومحاولة إزالة العقبات التي تحول دونه.

* كثرة مشاورته.

* الثقة بتوجيهاته.

* الرجوع إليه فيما يشكل من أمور الحياة صغيرها وكبيرها.

* طاعته أمرًا ونهيًا.

متى وجدت هذه العلامات فإن الحب موجود، ومتى تخلفت فحب القرآن مفقود، ومتى تخلف شيئًا منها نقص حب القرآن بقدر ذلك التخلف.

فينبغي لك أن تسأل نفسك هل أنا أحب القرآن؟! .

أنه سؤال مهم وخطير، وإجابته أشد خطرًا، وإنها إجابة تحمل معان كبيرة. قبل أن تجيب أرجع إلى العلامات لتقيس بها إجابتك، وتعرف منها الصواب من الخطأ .. البعض لو سُئِلَ هل تحب القرآن؟!.

يجيب مسرعًا نعم أحب القرآن. وكيف لا أحبه ؟!.

لكن هل هو صادق في هذا الجواب ؟!.

كيف يحب القرآن، وهو لايطيق الجلوس معه دقائق، بينما تراه يجلس الساعات مع ما تهواه نفسه وتحبه من متع الحياة؟! ، فلا تسأل عبد عن نفسه إلا بالقرآن، فإن كان يحب القرآن فإنه يحب الله ورسوله، ينبغي أن نعترف بالتقصير إذا لم يوجد فينا

العلامات السابقة، ثم نسعى في التغيير.

كيف أحقق ذلك ؟! من خلال أمرين:

أولهما: التوكل على الله والإستعانه به: أستعن بالله تعالى، وإسأله سبحانه أن يرزقك حب القرآن، ومن ذلك الدعاء العظيم عن بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ " مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا صَاحِبُهُ هُمُ أَوْ حُزْنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ بْنُ عَبْدِكَ، بْنِ أُمَّتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ إِسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ؟! قَالَ أَجَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ " (١).

فيكرره كل يوم ثلاثًا وخمسًا وسبعًا، ويتحرى مواطن الإجابة، ويجتهد أن يكون سؤاله بصدق، وإلحاح، وحرص أن يجاب.

نجد بعض الناس لا يعرف الإلحاح في المسألة إلا في المطالب الدنيوية المادية، أما الأمور الدينية فتجد سؤاله لها باردًا باهتًا، هذا إن دعا وسأل! ومن الإستعانة بالله في حصول تدبر وحب القرآن ما شرع لقارئ القرآن من الإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم،ومن البسملة في أوائل السور، ففيها طلب العون من الله تعالى.

ثانيهما : فعل الأسباب وخير الأسباب وأنفعها في هذا المقام العلم، ووسيلته القراءة عن عظمة القرآن، مما ورد في القرآن والسُّنَّة وأحوال السلف، في تعظيمهم للقرآن، وحبهم له.

أقترح على كل راغب في تحصيل حب القرآن، أن يضع برنامجًا يتضمن نصوصًا

(١)صحيح ابن حبان .

من القرآن والسُنَّة وأقوال السلف، فيها بيان عظمة القرآن ومكانته، ويرتبها على مستويين متن وشرح. فالمتن يحفظ ويكرر، والشرح يقرأ ويفهم، ويتم ربط المعاني التي تضمنها الشرح بألفاظ المتن، وهذا أمر لايستهان به، لأن عدم حبنا للقرآن، ناتج عن الجهل بقيمته، مثل الطفل تعطيه ٥٠٠ جنيه، يرفضها ويطلب جنيهًا واحدًا، فكذلك من لا يعرف قيمة القرآن، يزهد فيه ويهجرة بما هو أدنى منه..فلو أُعلِنَ عن كتاب، من يختبر فيه، وينجح يمنح عشر مليارات، فكيف يكون حرص الناس، وتعلقهم بهذا الكتاب؟! وكيف يكون الطلب عليه ؟! والإشتغال به؟! إن القرآن كتابًا، من ينجح فيه يمنح ملكًا لا حدود له.

إن كثير من المسلمين تعظيمهم للقرآن تعظيم مجمل، فحد علمهم أنه كتاب منزل من عند الله، يتعبدون بتلاوته في الصلاة،ويقرأ على المريض للشفاء. أما العلم التفصيلي بعظمة القرآن، ومكانته وما يحققه من نجاح للإنسان في هذه الحياة الدنيا، فهو محل جهل الكثير. سأضرب مثلًا: عندما تسمع عن شخص عظيم، له أثر في التاريخ، وتكون لديك صورة إجمالية عنه، ويصبح له مكانة في نفسك، وعندما تقرأ كتاب من ٦٠٠٠ صفحة عن بطولاته وتضحياته، وقصص كرمه وبره للناس، وما حققه من إنجازات، وما قام به من مروءات، تعيش مع هذا الكتاب، لمدة شهر حرفًا حرفًا، فبكل تأكيد أن صورة هذا القائد أو المصلح ستزداد عمقًا. ويزداد حبك وتعظيمك له. وهذا التأثير أمر مشاهد لا ينكره أحد.. فلم لا نوظفه لزيادة حبنا، وتعظيمنا للقرآن العظيم، وتعلقنا به؟!.

فإذا فعلنا ذلك، فإن هذا الكتاب العظيم سيزيد حبنا وتعظيمنا لله عز وجل، وبهذا نصل إلى مرتبة ودرجة الأولياء. نعم، أولياء الله المتقين الذين لا خوف عليهم ولا يحزنون.. الذين لو أقسم الواحد منهم على الله لأبره، وحقق له أمنيته. فإقرأ باستمرار عن القرآن وعظمته، وأسرار الإعجاز فيه، وعن حال السلف مع القرآن،

وقصصهم في ذلك، وأخبارهم واقتف أثرهم....

نعود إلى السؤال المهم كيف يكون القرآن دواءً للقلب؟

ثانيًا : حدد أهداف قراءتك القرآن!.

معظم الناس إذا سألته لماذا تقرأ القرآن؟ ، يجيب لأن تلاوته أفضل الأعمال، يجيب لأن الحرف بعشر حسنات والحسَنَة بعشر أمثالها، فيقصر نفسه على هدف ومقصد الثواب فحسب.

أما المقاصد والأهداف الأخرى فيغفل عنها. والمشتغل بحفظ القرآن تجده يقرأ القرآن ليثبت الحفظ، الهدف تثبيت الحروف وصور الكلمات. فتجده تمر به المعاني العظيمة المؤثرة فلا ينتبه لها ولا يشعر بها لأنه قصر همه وركز ذهنه على الحروف، وإنصرف عن المعاني الجليلة في القرآن، ولهذا السبب تجده حافظًا للقرآن العظيم كاملًا غير عامل، ولا متخلق به، وكثير ما هم إلا من رحم ربي.

إعلم أن جمع الذهن بين نيات ومقاصد متعددة في وقت واحد، عملية تحتاج إلى إنتباه وقصد وتركيز، وفي أي عمل تعمله، كلما تعددت النيات وكثرت كلما كان العمل أعظم أجرًا، وأكبر تأثيرًا على العامل..

كيف ذلك؟! قراءة القرآن يجتمع فيها خمس مقاصد، ونيات كلها عظيمة، وكل واحدة منها كافية لأن تدفعك، لتسارع إلى قراءة القرآن، وتكثر الإشتغال به، وبصحبته مصاحبة عمر وحياة.

وأهداف قراءة القرآن مجموعة في قول (ثَمَّ شعَّ) هذا من باب عدم نسيانها ورسوخها في ذهنك.

(ث) ثواب – (مَّ) مناجاة ومسألة – (ش) شفاء – (عَّ) علم وعمل.

فمتى قرأت القرآن إستحضر هذه المقاصد الخمس معًا. ثواب، ومناجاة ومسألة،

وشفاء، وعلم، وعمل. كان إنتفاعك بالقرآن أعظيم، وأجره أكبر، والدليل قول النَّبي ﷺ " لِكُلِّ إِمْرِئٍ مَانَوَىٰ " (١) ، فمن قرأ القرآن بنية الثواب رزقه الله الثواب، ومن قرأ القرآن بنية مناجاة الله وسؤاله منحه الله الأنس به والإجابه، ومن قرأ القرآن بنية الشفاء عافاه الله في قلبه وفي بدنه، ومن قرأ القرآن بنيه العلم رزقه الله علما، ومن قرأ القرآن بنية العمل به رزقه الله حياة طيبة في الدنيا وأجرا كريما موفورا في الآخرة، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٢).

فاعلم أخي: إذا قرأت كتاب الله، وسُنَّة نبيه، بنية صادقة، كما يحب ربنا ويرضى، أفهمك كما يجب، وجعل في قلبك نورًا.

الهدف الأول : العلم وهو أن تقرأ القرآن بهدف تدبره والعلم بما فيه وبما يقصده، وهذا مقصد مهم، والمقصود الأعظم من إنزال القرآن، والأمر بقراءته، بل ومن ترتيب الثواب على القراءة.

قال سبحانه وتعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ (٣).

قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (٤).

قال ابن مسعود رضي الله عنه " إذا أردتم العلم فأنثروا هذا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين ".

وقال الحسن بن على رضي الله عنهما " إن من كان قبلكم، رأوا القرآن رسائل من ربهم،

---

(١) رواه مسلم .
(٢) سورة النحل آية ٩٧ .
(٣) سورة ص آية ٢٩ .
(٤) سورة النساء آية ٨٢ .

فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها بالنهار".

قال مسروق بن الأجدع -رحمه الله- وهو من كبار تابعي الكوفة، وأجمعهم لعلم الصحابة، "ما نسأل أصحاب محمد ﷺ عن شيء، إلا وعلمه في القرآن، ولكن قصر علمنا عنه".

قال الحسن البصري -رحمه الله- "والله ماأنزل الله آية، إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت، وما أراد بها" وقال "قراء القرآن ثلاثة أصناف:

* صنف أتخذوه بضاعه يأكلون به.

* صنف أقاموا حروفه وضيعوا حدوده، واستطالوا به على أهل بلادهم، واستدارو به الولاة، كثر هذا الضرب من حملة القرآن لا كثَّرهم الله.

* صنف عمدوا إلى دواء القرآن، فوضعوه على داء قلوبهم، فركدوا به في محاربهم، واستشعروا الخوف، فارتدوا الحزن. فأولئك الذين يسقى الله بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء، ووالله لهؤلاء الصنف في حملة القرآن، أعز من الذهب الخالص...

ما هو العلم الذي تريده من القرآن؟!

وللعلم أقسام ثلاثة مالها ∴ من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ∴ وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهى الذي هو دينه ∴ وجزاءه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسُنَّة التي ∴ جاءت عن المبعوث بالقرآن

أخي القارئ نريد العلم الذي يحقق لك النجاح في الحياة، السعادة في الحياة، الحياة الطيبة، والنفس المطمئنة، والرزق الحلال الواسع، الأمن في الدنيا والآخرة. العلم

الذي يولد الإرادة والعزيمة، العلم الذي يقضي على كل مظاهر الفشل، والإخفاق في جميع مجالات الحياة، إنه العلم بالله والعلم باليوم الآخر. لابد أن نتعرف على الله، العلم بالله تعالى أوله العلم المقتضى للإستغفار كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ (١).

فالعلم الذي يورث الإستغفار ويدفع إليه هو العلم المؤدي للنجاح.. بعض الناس قصر العلم من القرآن على العلم بالحلال والحرام فيه، وهذا خطأ شائع، فيقصرون كل فضل وارد في العلم في القرآن والسُّنَّة على علم الفقة، أما المسائل الأخلاقية من علم الإعتقاد، أما أصول المتفق عليها، فيصرف النظر عنها، في حين أن العالم الحق الذي يعظم الله ويخشاه. وإن كان لا يعرف كتابة إسمه.

كما قال ابن مسعود رضي الله عنه "كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالإغترار بالله جهلًا".

لكن كيف أحقق العلم المقصود من القرآن؟! :

أن تقرأ القرآن قراءة الطالب لكتابه ليلة الإمتحان، قراءة مركزة واعية، قراءة من يستعد للإختبار فيه.

أن تقرأ القرآن قراءة الإداري للائحة النظام التي تنظم عمله، وتحدد الإجابة عن كل معاملة.

فالقرآن هو الذي يجب الرجوع إليه في كل موقف من مواقف حياتنا، فعليك حفظه وفهم نصوصه ليمكن الحصول على الإجابات الفورية السريعة والصحيحة في كل حالة تمر بك في الحياة، ، وأن تضع في ذهنك معاني، وأسئلة محددة ، تريد البحث عن جوابها في القرآن أثناء القراءة.

كل موقف وحدث وحالة تمر، إسأل نفسك أين ذكرت في القرآن؟ هل وردت في كتاب الله؟ وما موقف القرآن منها؟ نعم إن قراءة معاني القرآن أمر يختلف عن قراءة

(١) سورة محمد، آية: ١٩.

الألفاظ، إذا إستشعرنا عظمة القرآن، وتعايشنا معه، وجعلناه حوارنا في الدعوة، ومن آياته بالنص وعظنا، لكان أبلغ في النفع بالقرآن، ولا نرضى بدلًا منه عوضًا من القصص والمؤلفات. نعم رحمك الله فالإنشغال به يحمي القلوب، كما يحمي الماء الأرض، ومن المشاهد التي نراها من زكاة القلوب ورقتها في رمضان حين يتوالى عليها سماع القرآن وقراءته، ترى هذه الحياة التي حصلت للقلوب في رمضان، وتبدأ بالتلاشي بالتدرج بعد رمضان، حين تنقطع عن القرآن الكريم ذاك ري القلوب.

فإذا أردت حياة قلبك، فعليك بسقية بربيع القلوب، وبكميات وبكيفيات مناسبه، لإحداث الحياة كما سنوضح فيما بعد.

الهدف الثاني قراءة القرآن بقصد العمل به يقول عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه " ياحملة القرآن أو ياحملة العلم يقصد العلم بالقرآن، إعملوا به فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقًا يباهي بعضهم بعضًا، حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه .. أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله تعالى .. " اللهم سلم سلم. صدقت يا خليفة المسلمين، أمر الناس أن يعملوا بالقرآن، فأتخذوا تلاوته عملًا.

وكان بن مسعود رضي الله عنه يقول عن النَّبي ﷺ أنه كان يقرؤهم العشر فلا يجاوزنها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا.

نعم تصفح القرآن لتؤدب به نفسك، همك: متى أكون من المتقين؟! متى أكون من الخاشعين؟! متى أكون من الصابرين؟ ، متى أكون من الصادقين ؟! ، متى أزهد في الدنيا؟! ،متى أنهي نفسي عن الهوي؟!، لابد أن يكون للقرآن تأثيرًا في حياتك ، اقرأ القرآن ما نهاك ، فإذا لم ينهك فليست بقراءة .

سئلت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[1] **مَا كَانَ خُلُقُ رَسُوْلُ الله؟، فَقَالَتْ : "كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، يَغْضَبُ لِغَضَبِهِ، وَيَرْضَى لِرِضَاهُ، كَانَ قُرْآنَا يَمْشِيَ عَلَىَ الْأَرْضِ** [2] " - صلوات ربي وسلامه عليه- " .

جاء رجل بإبنه إلى أبي الدرداء رضي الله عنه فقال " إن إبني هذا قد جمع القرآن، فقال: اللهم غفرًا إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع... " .

كيف أعمل به ؟ أن تقرأ القرآن بنية العمل. بنيه البحث عن علم لتعمل به. قف عند آياته، أنظر ماذا تطلب منك ؟! هل أمرا نؤمر به؟! أو شيء ننتهي عنه؟! أو فضيله يدعوني للتحلي بها؟! أو خطر يحيق بي يحذرني منه؟! .

هذا القرآن يجب أن يكون قريبًا من كل مسلم، يربي نفسه ويهذبها، أما أن نبحث عن علاج لمشكلاتنا التربوية في كتب فلان أو علان أو مجلات وصحف وفضائيات، فإننا بهذ قد عطلنا هذا المقصد المهم من مقاصد القرآن ، واعلم أن كل تربية لاتبني مباشرة على القرآن، فهى تربية قاصرة، ولو أثمرت بعض الثمار مؤقتًا إستدراجًا وإبتلاءً .، إن تربية الشباب والناشئة لابد أن تبني مباشرًا من القرآن بأساليب ووسائل مناسبة.

الهدف الثالث قراءة القرآن بقصد المناجاة والمسألة عليك عند قراءة القرآن أن تستحضر هذا المقصد لكي تشعر بلذة القرآن، وتحقق منه النفع المرجو.

تعلم على ماذا كان يتحسر الصحابة في لحظات إحتضارهم ؟! على فوات تلك اللذة. حينما تستحضر أن الله يراك، ويسمع قراءتك، ويمدحك ويثني عليك، ويباهي بك ملائكته المقربين. إن احدانا لو ظن أن رئيسه أو والده أو أمير ينظر إلى قراءته ويمدحه لاجتهد في ذلك، فكيف والذي يستمع إليه ويثني عليه، ملك

(١)سورة القلم آية ٤.
(٢)رواه مسلم .

الملوك الذي له ما في السموات وما في الأرض. وما بينهما وما تحت الثري...

إقرأ واستشعر أن الله يخاطبك أنت ، فما آيات القرآن إلا رسائل الله لكل عبد منا، إذا مررت بأيه فيها تسبيح سبح، وإذا مررت بأيه فيها وعيد استعيذ، وإذا مررت بآيه فيها سؤال إسأل الله، فهذا معنى المناجاة، قراءة حية تعني فيها ماذا تقرأ؟ ولماذا تقرأ؟ ومن تخاطب بقراءتك. وماذا تحتاج منه؟ وما يجب له من التعظيم والتقديس؟ تذكر دائمًا إذا مررت بصفة من صفات النجاح والسعادة والفلاح إسأل الله إياها، وإذا مررت بصفة من صفات الشقاء والفشل والنكد والضيق أن تستعيذ بالله من شرها.

ثم أن تربيه النفس على هذا المقصد، يقوي فيها مراقبة الله تعالى في حال النشاط وهي مقبلة فيكون حاجزًا لها عند الفتور والإدبار.

تذكر أنه يجتمع لك في المناجاة إذا حققتها خمس معان مجموعة في قول (حرس مع) (ح) إن الله يحبك حين تقرأ القرآن (ر) يراك (س) يسمعك (م) يمدحك (ع) يعطيك. إستحضر هذه المعاني، وأنت تقرأ ولا تدعها تفوتك...

الهدف الرابع قراءة القرآن بقصد أو بهدف الثواب ورد في ترتيب الثواب على قراءة القرآن نصوص كثيرة منها .

*قال ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ " **مَنْ قَرَأَ حَرْفا مِنْ كِتَاب الله فَلَهُ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُوْلُ أَلَمْ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيْمٌ حَرْفٌ** "(١).

وقال ﷺ عن ابن مسعود رضي الله عنه " **إقْرَؤُا الْقُرْآنَ فَإِنَّكُمْ تُؤْجَرُوْنَ عَلَيْهِ أَمَّا أَنِّي لَا أَقُوْلُ (الٓمٓ) حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ عَشَرَ وَلَامٌ عَشَرَ وَمِيْمٌ عَشَرَ فَتِلْكَ ثَلَاثُوْنَ**"(٢).

(١)رواه البخاري .
(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع ١١٧٤.

*عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذا لِلْقُرْآنِ؟ فَإِذَا أُشِيرَ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ" (١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت "قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ : الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَعْتَعُ فِيْهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ " (٢) .

وعن جابر رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال " الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَعَاجِلَ مُصَدَّقٌ، مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ نَجَا، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ "(٣)، وقال ﷺ : " اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ " (٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : " مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوْتِ الله يَتْلُوْنَ كِتَابَ الله يَتَدَارَسُوْنَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَّرَهُمُ اللهُ فِيْمَنْ عِنْدَهُ " (٥).

*وقال ابن عباس رضي الله عنه " لو أن حمله القرآن أخذوه بحق وما ينبغي له، لأحبهم الله، ولكن طلبوا الدنيا فأبغضهم الله وهانوا على الناس ".

*وقال أبو هريرة رضي الله عنه " البيت الذي يتلى فيه كتاب الله، كثر خيره، وحضرته الملائكة، وخرجت منه الشياطين، والبيت الذي لا يتلى فيه كتاب الله ضاق بأهله، وقل خيره، وحضرته الشايطين، وخرجت منه الملائكة " والأحاديث كثيرة.

الهدف الخامس : قراءة القرآن بقصد الإستشفاء به ؛قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

(١) صحيح البخاري .
(٢)رواه البخاري ومسلم .
(٣) اسناد حسن عن أنس بن مالك .
(٤) رواه مسلم
(٥)رواه مسلم .

قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١].

وقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[٢].

القرآن شفاء القلوب من أمراض الشبهات، والشهوات والوساوس بأنواعها، وشفاء للأبدان من الأسقام، فمتى استحضرت هذا المقصد فإنه يحصل لك الشفاءان: الشفاء النفسي، والشفاء البدني، بإذن الله تعالى والدليل قول الرسول ﷺ " خَيْرُ الدَّوَاءِ الْقُرْآنُ " [٣]، ويحصل الشفاء بالقرآن بأمرين

الأول : القيام به في جوف الليل مع إستحضار نية الشفاء.

الثاني الرقية به ، فالريق الناتج عن تلاوة آيات القرآن له أثر عظيم في الصحة والعافية بعد النفث. فوراء كل تلاوة أنفث في كفيك وأمسح على جسدك بنية الشفاء، ولا يفوتك ذلك الأثر العظيم، والنفع الجسيم..

ثالثًا : القيام بالقرآن

هذا المفتاح من أهم مفاتح التدبر والإنتفاع بالقرآن.

أقرأ قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾[٤].

وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[٥].

---

(١)سورة يونس آية ٥٧ .
(٢)سورة الإسراء ٨٢ .
(٣)رواه البخاري .
(٤) سورة الإسراء ٧٩ .
(٥) سورة المزمل ١:٥ .

وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ " **لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ إِنَاءَ اللَّيْلِ، وَأَنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلا آتَاهُ اللَّهُ مَالا، فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ وَإِنَاءِ النَّهَارِ** "(٢).

النفع يشمل القيام به بالليل والنهار ... تأمل في قوله (ينفق) مع قوله (يقوم به) فيؤخذ منه أن من أتاه الله القرآن ولم يقم به أي لم يقرأه في صلاته فهو مثل من أتاه الله مالًا ولم ينفق. ويؤكد ذلك حديث رسول الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ " **تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَاقْرَأُوهُ، فَإِنَّ مَثَلَ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَعَلَّمَهُ فَقَامَ بِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ مَحْشُوٍّ مِسْكًا، يَفُوحُ رِيحُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَثَلُ مَنْ تَعَلَّمَهُ وَرَقَدَ وَهُوَ فِي جَوْفِهِ كَمَثَلِ جِرَابٍ أُوكِيَ عَلَى مِسْكٍ** "(٣) ، أي مثله كالذي اشترى مسكًا وتركه مغلقًا ولم يستخدمه.

قال ابن عمر رضي الله عنهما عن النَّبِي ﷺ " إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره ، وإن لم يقم نسيه" (٤).

فهذا هو المقصود في تدبر القرآن والإنتفاع به، أنه تذكر آيات القرآن الكريم، وكونها حاضرة في القلب في كل حين، وخاصة في المواقف الصعبة في الحياة، ومواقف الشدة، المواقف التي يفتن فيها المرء ويمتحن، فمن كان يقوم به أناء الليل وأناء النهار فتجد أجابته حاضره وسريعة ، تجده وقَّافًا عند كتاب الله، وتجده آمنًا مطمئنًا في جميع المواقف متماسكًا، أما من كان مفرطًا في استخدام هذا المفتاح، فما أسرع ما يسقط ويهوي. والدليل قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟

(١) سورة الزمر ٩ .
(٢) رواه البخاري ومسلم .
(٣) حديث حسن ، ولفظ آخر ذكره ابن حبان .
(٤) رواه مسلم .

بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (١).

فالصبر ثمرة العلم، والعلم وسيلته القرأة بتدبر، وهو حاصل لمن قرأ القرآن في صلاة ولذلك قرن الله تعالى بينهما في أكثر المواضع، وكان النَّبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ويطيل فيها القراءة، فإذا تربيت على هذا المفتاح، وخاصةً في الصغر، يسهل عليه الإنتفاع بهُ في الحياة، أما من لم يتربى عليه فإنه يضيق بالحياة في حال الشدة، وتضيع عليه الحياة حال الرخاء... فاجتماع القرآن مع الصلاة ممكن أن تشبهه باجتماع الأكسجين مع الهيدروجين حيث ينتج عنهما الماء الذي هو حياة الأبدان، فكذلك إجتماع القرآن مع الصلاة ينتج عنهما ماء حياة القلوب وصحتها وقوتها.

*وقال بن عمرو عن النَّبي ﷺ "مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِيْنَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِيْنَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنْ الْمُقَنْطِرِينَ" (٢).

من تبارك حتى الناس ١٠٠٢ آيه. ماذا لو قام الإنسان بها كل ليلة ؟! والمعنى أن من لم يقم بـ عشر آيات كتب من الغافلين، بالإضافة فإن العبد إذا دخل في الصلاة فإنه يزداد قربًا من الله تعالى وأن الله يقبل عليه بوجهه. فلو لم يكن في القراءة داخل الصلاة إلا الإنقطاع عن الشواغل والملهيات لكفى، فإن المصلى إذا دخل في الصلاة حرم عليه الكلام والإلتفات والحركة عن غير حاجة ، فهذا أعون على التدبر والتفكر، وأجمع للقلب، ومن حوله لا يقاطعه ولا يشغله ما دام في صلاته.

رابعًا : أن تكون القراءة في الليل

الليل وخاصة وقت السحر من أفضل الأوقات للتذكر، فالذاكرة تكون في أعلى مستوى بسبب الهدوء والصفاء، وبسبب بركة الوقت حيث النزول الإلهي، وفتح أبواب السماء، فأي أمر تريد تثبيته في الذاكرة بحيث تتذكره خلال النهار فقم

(١) سورة البقرة آية ١٥٣ .
(٢)رواه أبو داوود في سُننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما .

بمراجعته في هذا الوقت.

مما يدل على كون القراءة في ليل أحد مفاتح التدبر قول الله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾[١].

وقوله عز وجل ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ٦ ﴾[٢].

وقال تعالى ﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ ﴾[٣].

ويقول ابن حجر عن مدارسة جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ في كل ليلة في رمضان "المقصود من التلاوة الحضور والفهم لأن الليل مظنة ذلك لما في النهار من الشواغل والعوارض الدينوية والدينية ".

قال الحسن بن عليّ رضي الله عنهما: " أن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها بالنهار.

*وقيل عن الشيخ الشنقيطي أنه قال: " لايثبت القرآن في الصدر، ولا يسهل حفظه، ويتيسر فهمه، إلا في جوف الليل " وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب، وأبعد عن الشاغلات والملهيات، واصون للرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء به الشرع من إيجاد الخيرات في الليل، فإن الإسراء بالرسول ﷺ كان ليلًا.

أن القراءة للقلب مثل السقي للنبات. فالسقي لا يكون في حر الشمس فإن هذا يضعف أثره خاصة مع قلة الماء فإنه يتبخر. وكذلك قراءة القرآن إذا كانت قليلة وكانت في النهار وقت الضجيج، فإن ما يرد على القلب من المعاني تتبخر ولا يؤثر

(١)سورة الإسراء آية ٧٩ .
(٢)سورة المزمل٦ .
(٣)سورة آل عمران آية ١١٣ .

فيه. وهذا هو جواب السائل " إني أقرأ القرآن ولكن لا أتأثر به ؟، فإذا سألته وجد قراءته كلها نهارًا.

إعلم أن القراءة في ليل يحصل معها الصفاء والهدوء حيث لا أصوات تشغل الأذن، ولا صور تشغل العين، فيحصل التركيز التام، وهو يؤدي إلى قوة التدبر والتفكر، وقوة الحفظ، والرسوخ لألفاظ القرآن ومعانية، ويحصل من هنا النفع العظيم من القرآن.

خامسًا : التكرار الإسبوعي للقرآن:

إعلم أنه لابد من تحزيب القرآن والمحافظه عليه. القرآن انزل يعمل به، ووسيلة العمل به العلم به أولًا، وهو يحصل بقراءته وتدبره .. وكلما تقاربت أوقات القراءة وكلما كثر التكرار كان أقوى في رسوخ المعاني القرآنية العظيمة.

من أجل ذلك كان السلف يواظبون على قراءة القرآن، ويحرصون على كثرة تلاوته وتكرارها، ومن ظن أنهم يقرأونه من أجل الثواب فحسب فقد قصر فهمه في هذا الباب..

دليل لزوم تحزيب القرآن والمحافظة عليه لمن أراد تدبر القرآن:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ " **مَنَ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنْ لَيْلٍ** " (١).

وعن القاسم -رحمه الله- قال " كنا نأتي عائشة رضي الله عنها بعد صلاة الفجر، فأتيناها ذات ليلة فإذا هي تصلي، فقالت نمت عن حزبي في هذه الليلة فلم أكن لأدعه ". فينبغي الحرص التام عليه وأن تقدم على كل عمل والأ يهدأ لك بال حتى تقوم به، وتؤديه في وقته، أو تقضيه أن فات أداؤه في وقته.. ذلك أن كنت تريد الإنتفاع بالقرآن العظيم. فمتى وجد هذا الحرص فهو مفتاح النجاح في الحياة.

(١) رواه مسلم ٧٤٧ .

أنه مفتاح لا تحتاج إلى إثبات بالتجربة فهو ثابت بالخبر عن الله تعالى وعن رسوله كما قال تعالى ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [1] . ومتى علم الله منك صدق الرغبة على هذا الغذاء، فإنه يفتح لك أبوابه، ويبارك لك فيه، ويمتد أثره ليشمل جميع جوانب حياتك.

والسؤال كيف أحزب القرآن ومدة ختمه ؟ :

اعلم أن قراءة القرآن مثل العلاج، لابد أن يحدد بزمن معين لا يزيد عليه، ولا ينقص حتى يحدث أثره. والمدة التي أقرها النَّبي ﷺ لأمته لمن يرغب في الخير من سبعة إلى شهر، وينهى عن أقل من ثلاث، ونهى عن هجره أكثر من أربعين يومًا.

قال أوسى بن حذيفة سألت أصحاب الرسول كيف يحزبون القرآن؟ قالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع واحدى عشر وثلاث عشر وحزب المفصل، فالختم في سبع ليالي فعله الأكثرين من السلف.، الأولى أن يكون تحزيب القرآن وتقسيمه على السور، بمعنى أن تقرأ السورة في الليلة الواحدة كاملة، وعليه يكون التقسيم موافق لنهايات السور، وهو عمل الصحابة والتابعين، أما الأحزاب والأجزاء والإربع المعروفة اليوم، فلم تأت إلا متأخرًا، علاوة على ما فيها من بتر للمعاني، وتقطيع للسور...كيف أطبق التحزيب ؟! .

القيام بالقرآن كله كاملًا في كل أسبوع يحتاج الوصول إليه تدرج وتدريب (أطبق قاعدة أدومه وإن قل) في البداية.، ممكن تكون البداية من سورة التكوير إلى الناس تقسمه سبع أقسام، وكل ليلة تقرأ قسم، وتكرر هذا كل أسبوع، أو البداية بالمفصل، وتحزبه سبعة أحزاب، لكل يوم من ايام الأسبوع حزب يكرر هذا كل أسبوع.

---

(١)سورة طه آية ١٢٣.

وعندما ترى الأثر والفائدة، فإن هذا سيدفعك للزيادة، ولتكن بالتدرج فيزداد المقدار، فيتم توزيع المقدار الجديد إلى سبعة أقسام، كل قسم يقرأ في ليلة، بحيث تختم المقدار كل أسبوع حتى يرسخ وحتى تثبيت الآيات في القلب بصورة قوية يسهل استدعاؤها في مواقف الحياة اليومية.

سادسًا أن تكون القراءة حفظًا:

مثل حافظ القرآن وغير الحافظ مثل أثنين في سفر، الأول زاده التمر، والثاني زاده الدقيق، فالأول يأكل متى شاء وهو على راحته، والثاني لابد له من نزول، وعجن وإيقاد نار وخبز وإنتظار نضج..

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ " **إِنَّ الَّذِيْ لَيْسَ فِيْ جَوْفِهِ شَيْءٌ مِّنَ الْقُرْآنَ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ** " (١).

قال ابن تيمية -رحمه الله- " أنا جنتي وبستاني في صدري، أنَّى رحت فهي معي " وهو يريد بذلك القرآن والسُنَّة التي في صدره تثبته وتزيده يقينًا ..حفظ القرآن يصير لصاحبه كأن آي القرآن بين عينيه، لينتزع منها ما شاء حسب مواقف الحياة، والإ إن لم يكن محظوظًا فكيف لنا تطبيقه في الحياة،، واعلم أن للحفظ أثر عظيم على الفهم والتدبر، فأي مشكلة لها ثلاث صور:

الأول: معالجة شفهية من غير ترتيب للحلول.

الثانية: معالجة مكتوبة مرتبة .

الثالثة: حفظ ما تم التوصل إليه من حلول. والصورة الثالثة هي أقواها، فحفظ القرآن وتكرار قراءته، هو من النوع الثالث، فترديد الآية، والتفكر فيها وهي محفوظة، أفضل من تكرارها نظرًا لأن مفعول الطريقة الثالثة يستمر بينما

(١)رواه الترمذي .

الثانية يقف عند إغلاق المصحف.

لماذا نحفظ القرآن؟!

كما سبق أن أتضح أن الهدف الأول لحفظ القرآن هو القيام به أناء الليل وأناء النهار، والهدف من القيام به حفظ ما تضمنه من العلم بالله واليوم الآخر. ذلك العلم الذي يحقق السعادة والحياة الطيبة، ويحقق الثبات في الأزمات، والقوة للأمة في مواجه أعدائها، هذا هو الهدف الأهم لحفظ القرآن والذي، ينبغي أن تركز عليه أنت ويركز عليه القائمون بالتربيه.

حفظ الألفاظ وسيلة وليس غاية. وسيلة إلى حفظ المعاني، الإنتفاع بها في الحياة، أما الإقتصار على حفظ الألفاظ فهذا قصور في حق القرآن العظيم وهو إنحراف عن الطريق المستقيم في رعايته، والإنتفاع به في الحياة الدنيا والآخرة.

كيف تحفظ القرآن العظيم (الحفظ التربوي)؟

* التحزيب بالسور بدأ من سورة الناس إلى البقرة.
* الحفظ يقسم إلى حفظ جديد والقيام بالقرآن بالمراجعة.
* الوقت يقسم إلى نهار للجديد والليل للقيام مع تطبيق المفاتح العشرة.
* الجديد يقسم إلى حفظ بعد الفجر والعصر والتكرار صلاة النافلة أو الفريضة.
* تقليل مقدار الحفظ الجديد والتركيز أكثر على التكرار لما حفظ.
* ما تم حفظه يقسم سبع أقسام تقوم كل ليلة بقسم، وهذا هو القيام بالقرآن وهو ما يعرف بالمراجعة.
* كلما زاد المقدار المحفوظ يتم إعادة التقسيم الإسبوعي مع ملاحظة أن أيامَ الأسبوع الأولى يكون مقدارها أقل لأنه لم يرسخ بعد.

* الحفظ سورة سورة وحفظ السورة لأول مرة بالتقسيط ولا يكون التقسيم عشوائيًا ولا حسب الأوجه ولا حسب الإربع بل يكون حسب موضوعات السورة والموضوع الطويل يقسم إلى مقطعين أو أكثر ، يمكن جمع أكثر من موضوع في مقطع واحد إن كانت قصيرة فبعض الموضوعات تكون في آية واحدة.

* لا يصلح تجاوز السورة حتى تحفظها جملة مهما كانت طويلة وتكررها بعد حفظها جملة. عددًا من المرات وفي أكثر من يوم.

* من المفيد جدًا تسميع ما تقوم به الليلة على شخص آخر.

* إذا تبين ضعف حفظ بعض السور أثناء (القيام بالقرآن) ليلًا فيتم مراجعته وضبطه في نهار اليوم التالي له و لاتصلح أبدًا أن تبدأ بحفظ جديد والحالة هذه. وغالبًا ما يكون هذا في أيام الأسبوع الأولى التي تتضمن ما تم حفظه أخيرا.

* من يقرأ ما يحفظه (ولو كان سورة واحدة) كل أسبوع خير من أن يقرأ ١٠٠ سورة كل شهر.

* فالأول يقرأ السورة كل سبعة أيام، والثاني يقرأ السورة كل ثلاثين يوم، فأيهما سيكون حفظه للمعاني أثبت، وأقوى وأقرب للذكر والعمل؟!.

لا عبرة لكثرة مقابل القوة، فقليل قويٌّ خير من كثير ضعيف، وهذا يذكرني بما جاء في سُنن أبي داوود من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " **يُوْشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟! قَالَ بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيْرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُوْرِ عَدُوِّكُمْ الْوَهَنِ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَارَسُوْلَ اللهِ وَمَا الْوَهْنُ؟! ، قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا**

وَكَرَاهَتُهُ الْمَوْتِ "[١] .

وعليه فليس الهدف حفظ ألفاظ كثيرة من القرآن بل الهدف تكرار المحفوظ من القرآن كل سبعة أيام في صلاة بنية التدبر ليتم الشفاء من الوهن، أيا كان هذا المحفوظ حتى لو سورة واحدة فهو خير ألف مرة من حفظ كثير لا يتصف بما ذكر فإن وجد حفظ كثير أو القرآن كاملًا بحسب ما ذكر فهو أولى وأقوى من القليل.. المهم القاعدة السابقة ومتى رأيت أن الوقت يضيق فعليك بتقليل المقدار مع بقاء التكرار .

سابعًا : تكرار الآيات:

الهدف من التكرار هو التوقف لإستحضار المعاني، وكلما كثر التكرار كلما زادت المعاني. والتكرار قد يحصل لا إراديًا تعظيمًا أو إعجابًا بما تقرأ ، فالتكرار نتيجة وثمرة للفهم والتدبر وهو وسيلة أيضًا إليه حينما لا يوجد.

* قال ابن مسعود رضي الله عنه : " لاتهزوه هز الشعر ولا تنثروه نثر الدقل، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن همَّ أحدكم آخر السورة ".

قال أبو ذر رضي الله عنه :قام النَّبي ﷺ بآيه حتى أصبح يرددها ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[٢] .

قال عباد بن حمزة رضي الله عنهما : دخلت على أسماء رضي الله عنها وهي تقرأ ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾[٣]. قال فوقفت عليها، فجعلت تستعيذ وتدعو، يقول فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي فيها بعد تستعيذ وتدعو".

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه .
(٢) سورة المائدة ١١٨ .
(٣)سورة الطور آية ٢٧ .

* وكان سعيد بن جبير -رحمه الله- يردد هذه الآية ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[1] بضعًا وعشرين مرة في قيام ليله.

وكان محمد بن كعب القرظي -رحمه الله- يقول : لأن أقرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ ﴾و﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ ﴾أرددها وأتفكر فيها ، أحب إليَّ من أن أبيت أهذ القرآن.

وردد الحسن البصري -رحمه الله- ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ ﴾[2] . حتى أصبح. فقيل له في ذلك قال معتبرًا: ما نرفع طرفًا ولا نرده إلا وقع على نعمة ومالا نعلمه من نعم الله أكثر.

قام تميم الداري ﷺ بآيه حتى أصبح ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١ ﴾[3] .

هذه عادة السلف، يردد الآية حتى يصبح، ويستشعروا أن ما يقرأون ليس كلام بشر، ويستحضروا عظمة المتكلم سبحانه، ويتدبروا كلامه، فإن التدبر هو المقصود من القراءة وإن لم يحصل التدبر إلا بترديد الآية فليرددها، رحم الله السلف قرءوا القرآن حركوا به القلوب، بداؤا به وهم لايتدبرونه فرددوه حتى انتهوا به وهم يبكون به .. قال عليه الصلاة والسلام: من لم يبكي فليتباكى .

ثامنًا : ربط الألفاظ بالمعاني والأحداث:

أي حفظ المعنى للفظ، وربط الآيه بالواقع، وتتزيل الآيه على المواقف والأحوال اليومية، بحيث يبقى القرآن حيًّا في القلب، تؤخذ منه الإجابات والتفسيرات للحياة، وتؤخذ منه التوجيهات والأنظمة في كل صغيرة وكبيرة، وهذا الربط

(١)سورة القرة آية ٢٨١ .
(٢) سورة النحل آية ١٨ .
(٣)سورة الجاثية آية ٢١ .

يعرف بالإقران الشرطي عند علماء النفس، وهو ما يعرف في القرآن والسُنَّة بالذكر أو التذكر وهو يعني تداعي المعاني. كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (١).

والربط نوعان عفوي وقصدي: العفوي الهامات، وفتوحات يفتحها الله تعالى على من يشاء من عباده. وقصدي أن تقوم بالربط بين اللفظ والمعاني ثم التكرار حتى ترسخ وتثبت والربط يكون بتكرار اللفظ مع استحضار معنى جديد في كل مرة حتى تمر على كل من المعاني التي يمكن أن تتذكرها من النص أو اللفظ. كما كان الحسن البصري يردد﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ إن إدراك ووعي الناس لآيات القرآن تتفاوت تفاوت كبيرًا مع أن الآية هي الآية يقرؤها هذا ويقرؤها هذا وما بينهما في عمق التفكير والفهم للآية ما بين المشرقين.

تاسعًا : الترتيل:

الترتيل يعني الترسل والتمهل، ومن ذلك مراعاة المقاطع والمبادئ، وتمام المعنى بحيث يكون القارئ متفكرًا فيما يقرأ ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾.

قال ابن كثير-رحمه الله-: فيها " أي إقراء على تمهل، فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبرة، وكذلك كان يقرأ صلوت الله وسلامه عليه، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: **" صَلَّيْتَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَأَفْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا ثُمَّ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلا. إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ "** (٢).

قال الحسن البصري -رحمه الله-: يا بن آدم كيف يرق قلبك وإنما همَّك آخر السورة؟!

---

(١)سورة الأعراف :٢٠١ .

(٢) رواه مسلم .

عاشرًا : الجهر بالقراءة:

عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ وَيَجْهَرُ بِهِ "(١).

وعن أبي قتادة ﷺ : " أَنَّ النَّبِيَّ خَرَجَ لَيْلَةً، فَإِذَا بِأَبِي بَكْرٍ ﷺ يُصَلِّي يُخَفِّضُ صَوْتَهُ، وَمُرَّ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَهُ، قَالَ فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تُخَفِّضُ مِنْ صَوْتِكَ؟ قَالَ قَدْ اسْمَعْتُ مَنَ نَاجَيْتُ يَا رَسُوْلَ الله، وَقَالَ لِعُمَرَ ﷺ مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَرْفَعَ صَوْتِكَ؟ فَقَالَ يَا رَسُوْلَ الله أُوْقِظُ الْوَسْنَانَ، وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ، فَقَالَ النَّبِيُّ يَا أَبَا بَكْرٍ أَرْفَعُ صَوْتِكَ شَيْئًا، وَقَالَ لِعُمَرَ ﷺ أَخْفَضَ صَوْتِكَ شَيْئًا "(٢).

*وسئل ابن عباس ﷺ عن جهر النَّبي ﷺ بالقراءة بالليل فقال "كان يقرأ في حجرته قراءة لو أراد حافظ أن يحفظها فعل".

*وقال ابن عباس ﷺ لرجل ذكر له أنه سريع القراءة :" إن كنت فاعلًا فاقرأ قراءة تسمعها أذنك ويعيها قلبك"..

وماهي فوائد الجهر؟!... إن الجهر بما يدور في القلب عون على التركيز والإنتباه، البعض عند قراءته للقرآن يسر بقراءته طلبًا للسرعة، وقراءة أكبر قدر ممكن، وهذا خطأ ومن الواضح غياب قصد التدبر. أن الجهر درجات أدناها أن يسمع المرء أذنه، وتحريك أداوات النطق من لسان وشفتين، وأعلاها أن يسمع من قرب منه، فما دونه ليس بجهر، وما فوقه يعيق التدبر، ويرهق القارئ، ويؤذي السامع، ومن فوائد الجهر أيضًا إستماع الملائكة الموكلة بسماع الذكر لقراءة القارئ، وهروب وفرار الشيطان عن القارئ، وعن المكان الذي يقرأ فيه، وفي ذلك تطهير للبيت، وتعطير له وجعله بيئه صالحة للتربية والتعليم للنشأ..

(١) رواه البخاري.
(٢) صححه الألباني.

إن البعض منا يريد تدبر القرآن والتأثر به، وهو لم يهيء الأسباب والوسائل المساعدة على فهمه وفقهه ، حتى أدنى درجات التركيز والهدوء لا يُوجدها حين قراءته للقرآن لماذا ؟!.

لأنه قصر همته على نطق الألفاظ، وما يحصل من حسنات مقابل ذلك، إنك أن واظبت على قراءة القرآن كما تم بيانه ووصفه من حال السلف فإن هذا يؤدي إلى حياة قلبك وقوة ذاكرتك وصحة نفسك وعلو همتك وقوة إرادتك وهذه هي مرتكزات النجاح الحقيقية. ذلكم النجاح الشامل المتكامل الثابت في حال الشدة كما هو حاصل في حال الرخاء.ووالله عندما قرأت هذه المفاتح ودتت لو أن العالم كله، مسلمه وكافره، يقرئها ويعقلها، جزى الله صاحبها عنا خير الجزاء، الحمد لله الذي جعل من أمة الحبيب محمد ﷺ من يحيي سُنَّته، ويشحذ الهمم للسير إلى الله في زمن كثرت فيه العوائق والحواجز، حقا إن السير سير الأرواح لا الأبدان...إنَّ من يطبق هذه النصائح يسري بأم عينه نور القرآن ويصبح من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين مدحهم الله بقوله :﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾[1].

أقول إلى كل راغب في صلاح قلبه، إن طريق الإستشفاء بالقرآن لا يحصل بتلاوة، بل لابد من تدبره، والإعتبار بما فيه من الأخبار، والإنقياد لما فيه من أحكام...

والأن أنتهينا من الدواء الأول لصلاح القلب وهو (القرآن).

الدواء الثاني: التوبة النصوح :

إعلم أن التوبة الصادقة المستوفية للشروط تجلو القلب، وتزيل عنه آثار المعاصي والسيئات، والإصرار على العاصي يسود القلب، فتجد قلب المصرُّ على المعصية في ظلمة ، وقسوة لاصفاء فيه، ولا لذة لعبادة، بل عذاب وشقوة، والتوبة سعي

(١) سورة مريم آية ٥٨

من مساعي القلب لابد له منها، ليصلح ويستقيم، فلذة التوبة وتجديدها، ودوام الإستغفار، مما يصلّح القلب ويطهره، ويدفع لعمل صالح ، ويرقى بالبعد من منزلة إلى منزلة حتى يصير من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

في الصحيح يقول الرسول ﷺ " **إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِيْ، وَإِنِّيَ لَأَسْتَغْفِرِ اللهَ فِيْ الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**" (١).

فاخبر أنه يزيل هذا الغين عن قلبه بالإستغفار، مع أنه ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكيف بغيره ممن أثقلت كهولهم الذنوب، واستكثروا من الذنوب والمعاصي؟! أليسوا في حاجة إلى استغفار كثير يصلحوا به فساد قلوبهم ؟!، ولي وقفة مع قول: " **إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِيْ** " ، حتى لا يشرد ذهننا بعيدًا ، اختلف فيها العلماء فمعنى الغين قيل قد يكون هذا الغين السكينة التي تغشى القلب ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ (٢) ، أي الوقار ويكون الإستغفار إظهار للعبودية والإفتقار.

قيل: الغين حال خشية وإعظام يغشى القلب ويكون استغفاره شكرًا .

قيل : كان عليه السلام في ترق من مقام إلى مقام فإذا ارتقى من المقام الذي كان فيه إلى مقام أعلى استغفر من المقام الذي كان فيه .

وقيل هو همّه بسبب أمته وما اطّلع عليه من أحوالها بعده فيستغفر لهم، قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه فإذا فتر عنه أو غفل عن ذلك عدَّ ذلك ذنبًا فاستغفر . **والسؤال ما علاقة التوبة بصلاح القلب؟!.**

إن العبد إذا تاب من الذنوب استفرغ من قلبه تخليطاته، حيث خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة،

(١)رواه مسلم ٤٨٧٠
(٢) التوبة آية ٢٦ .

واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه وإقرأ قول الله ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (١)، فهذا مثل ضربه الله لمن كان ميت القلب بالجهل والكفر، والإصرار على المعاصي، فهداه الله بالتوبة من ذلك، وأحياه بالإيمان، وأتاه نورًا يستضيء ويمشي به في الناس.

فاعلم رحمك الله أن من أعظم نِعم الله عز وجل أن فتح باب التوبة، وجعله فجرًا تبدأ معه رحلة العودة بقلوب منكسرة ، ودموع منسكبة ، وحياة خاضعة، فلا يأخذك الهوى وملهيات النفس، فإن الرسول ﷺ يقول " كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى ، قَالُوا ؛ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟، قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى " (٢).

فجدَّ في التوبة، وهبَّ من الغفلة، فليس لك مستراح إلا تحت شجرة طوبي، ولا لك قرار إلا يوم المزيد، واعلم أن خير أيامك يوم العودة إلى الله.. إصدق في السير وليهنك حديث رسول الله ﷺ " لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحا بتَوْبَةِ عَبْدِه حِيْنَ يَتُوْبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِه بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَآيَسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، وَقَدْ آيَسَ مِنْ رَاحِلَتِه، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ أَذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ "(٣).

واعلم أن من أعظم الإغترار: التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة.

وطلب دار المطيعين بعمل المسيئين. وإنتظار الجزاء بغير عمل.

والتمني على الله عز وجل مع الإفراط .

---

(١)سورة الأنعام آية ١٢٢ .

(٢)رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم .

من أحب الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف النار انصرف عن السيئات.

فكثير من الخلق ألهتهم أماني المغفرة، حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم إني أحسن الظن بربي، وكذب لو أحسن الظن لأحسن العمل..

أيها السائر في طريق النجاة، جهاد النفس جهاد طويل، وطريق محفوف بالمكاره، مذاقه مر، وملمسة خشن، فعليك بالسير في ركاب التائبين حتى تحط رحالك في جنات عدن.

كلنا أصحاب ذنوب وخطايا، وليس منا من هو معصوم من الذلل والخطأ، ولكن خيرنا من يسارع إلى التوبة، ويبادر إلى العودة، تحثه الخطي، وتسرع به الدمعة، ويعينه أهل الخير رفقاء الدنيا والآخرة، فإن من واجب الإخوة في الله عدم ترك العاصي مستمر في معصيته، بل يحاط بإخوانه ويذكر وينبه. ولا يُهمل ويُترك فيضل ويشقي. أرأيت إن نزل به مرض أو شأن من أمور الدنيا كيف تقف معه وتعينه؟! فالآخرة أولى وأبقي...

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "الذي يضر صاحبه هو ما لم يحصل منه توبه، فأما ماحصل منه توبة فقد يكون صاحبه بعد التوبة أفضل منه قبل الخطيئة، ولا تظن أن التوبة في ترك المنكرات والمعاصي فحسب، بل إحرص على التوبة من ترك النوافل والمداومة على الخير. فتب عن تفريطك في السنن الرواتب، وتب عن إضاعتك للتراويح والقيام، وتب عن بخلك وشحك، وتب إلى الله من إضاعة وقتك الثمين، وتب إلى الله من الغفلة عن صلاة الفجر مع المسلمين.."

إعلم أن الله تعالى أمر المؤمنين جميعًا بالتوبة فقال ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (١).

وقال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ (٢). قسَّم الله

(١) سورة النور آية ٣١ .
(٢)سورة التحريم آية ٨ .

تعالى العباد إلى تائب وظالم، وليس هناك قسم ثالث البته، قال تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (١) ونحن في هذا الزمان زمن الفتن، بعد كثير من الناس عن دين الله، فعمت المعاصي، وأنتشر الفساد، حتى لم يبق أحد لم يلوث بشيء من الخبائث إلا من رحم الله، والسبب أنهم لا يرجون لله وقارًا، فيعصونه بأنواع الذنوب ليلًا ونهارًا، ومنهم طائفة ابتلوا بإستصغار الذنوب، فترى أحدهم يحتقر في نفسه بعض الصغائر، فيقول ماذا يضر لو فعلت كذا أو كذا؟! نظرة أو مصافحة أجنبية أو نظرة في مجلة أو مسلسل، انظر إلى هذا الواقع وواقع الصحابة.

كما في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال:" **إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالا هِيَ أَدَقُّ فِيْ أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، كُنَّا نُعَدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُوْلِ اللهِ مِنَ الْمُوْبِقَاتِ أَيُّ الْمُهْلِكَاتُ** " (٢)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: " **إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ : هَكَذَ ، أَيْ بِيَدِهِ فَذَبَّه عَنْهُ** " (٣).

هل نقدر خطورة الأمر إذا قرأنا حديث رسول الله ﷺ " **إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوْا بَطْنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُوْدٍ وَذَا بِعُوْدٍ، حَتَّى حَمَلُوْا مَا نَضِجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يَأْخُذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ**"(٤).

هكذا حالنا ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره، فانبعث الكثيرون من غفلتهم ورقادهم، واحسو بالتقصير في حق الله وندموا على التفريط والعصيان، فتوجهوا بفضل الله ومنه وكرمه إلى طريق النور، طريق التوبة لكن ...

---

(١)سورة الحجرات ١١ .
(٢)رواه البخاري .
(٣)رواه البخاري
(٤) صحيح الألباني في الجامع ٢٦٨٦ .

يعترض هذا الطريق عوائق يظنونها تحول بينهم وبين التوبة. منها ما هو في النفس، وما هو في الواقع المحيط، لأجل ذلك أنقل اليكم هذه الكلمات أسأل الله أن ينفعني وأياكم بها وحسبي منها دعوة صالحة أو نصيحة صادقة والله يتوب علينا جميعًا وسينتفع بهذه الكلمات من يؤمن بقوله الله عز وجل: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١). قبل أن نتكلم في شروط التوبة وفضائلها وأخطائها، والأمور التي تعين عليها، والأمور التي تعين على الثبات عليها، نفهم آيتين في سورة النساء:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (٢).

عمل السوء المقصود به جميع السيئات صغيرها وكبيرها، والجهالة: الإقدام على السوء وإن علم صاحبه أنه سوء. فإن كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من أطاع الله فهو عالم، وذلك من وجهين:

الأول: إن من كان عالمًا بالله تعالى وعظمته وكبريائه وجلاله وجماله، فإنه يخافه ويهابه ويخشاه ويحبه، فلا يقع منه عصيان. فلو تفكرت في عظمة الله ما عصيته، فكفى بخشية الله علمًا وكفى بالإغترار به جهلًا.

الثاني: إن من آثر المعصية على الطاعة فإنما حمله على ذلك جهله وظنه أنها تنفعه عاجلًا باستعجال لذتها، وإن كان عنده إيمان فهو يرجو التخلص من سوء عاقبتها، والتوبة في آخر عمره، وهذا جهل محض لسببين فإنه تعجل الإثم والخزي، ويفوته

(١) سورة الحجر آية ٤٩ - ٥٠.
(٢) سورة النساء آية ١٧ - ١٨.

عز التقوى، ولذة الطاعة، وقد يتمكن من التوبة بعد ذلك وقد يعالجه الموت بغتة. فمثله كالجائع الذي أكل طعامًا مسمومًا لدفع جوع حاضر، ورجا تخلص من ضرره بشرب الديرقان بعده ، وهذا لا يفعله إلا جاهل.

أما " التوبة من قريب " يقول ابن عباس قبل المرض والموت، وهذه إشارة إلى أفضل أوقات التوبة، وهو أن تبادر التوبة في صحتك قبل نزول المرض بك حتى تتمكن حينئذ من العمل الصالح، لذلك قرن الله تعالى التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة في القرآن. والتوبة في الصحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة في الصحة ورجاء البقاء، والتوبة في المرض عند حضور إمارات الموت تشبه الصدقة بالمال عند الموت. فكأن من لا يتوب إلا في مرضه قد استفرغ صحته وقوته في شهوات نفسه وهواه ولذة دنياه فإذا آيس من الدنيا ومن الحياة تاب، فأين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب وهو صحيح قادر على عمل المعاصي فيتركها خوفًا من الله تعالى ورجاء ثوابه، ما حال هؤلاء؟! ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.[1] ثم سوى من تاب عند الموت ومن مات من غير توبه.

والمراد بالتوبة عند الموت أي عند اكتشاف الغطا ومعاينة المحتضر أمور الآخرة ومشاهدة الملائكة.

هنا الإيمان والتوبة والأعمال الصالحة لاتنفع، لأن هذه الأمور لا تنفع إلا بالغيب... لكن هنا صار الغيب شهادة. بالإضافة أن عند الموت تنقطع المعرفة، ويذهب العقل، ولم يتصور منه ندم ولا عزم، فالندم والعزم يصح مع حضور العقل، فما يزال العبد في مهل من التوبة ما لم يأت ملك الموت يقبض روحه، فإذا نزل ملك الموت فلا توبة حينئذ ...

لكن ما هي شروط التوبة ومكملاتها ؟!، يظن الكثير أن التوبة ألفاظ باللسان

---

(١) سورة النساء آية ١٧ .

وإستغفار فحسب مع الإستمرار على الذنب، بل رب استغفارة واحدة مع الإقلاع عن الذنب خير من ألف إستغفارة مع الإستمرار على الذنب، واقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾[1] فالتوبة أمر زائد على الإستغفار، ولأن الأمر عظيم لابد له من شروط.

فاعلم أن للتوبة شروط مأخوذة من الكتاب والسُنّة :

الشرط الأول : الإقلاع عن الذنب فورًا...

فعلى العبد أن يبادر إلى التوبة لأن تأخير التوبة في حد ذاته يحتاج إلى توبة، فيجب أن نصبح تائبين ونمسي تائبين. فالمؤمن لا ينبغي أن يصبح ولا يمسي إلا على التوبة، فإنه لا يدري متى يفاجئه الموت، فمن أصبح وأمسى وهو ليست على توبه فهو على خطر، لأنه يخشى أنه لقى الله غير تائب قال الله عز وجل : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[2] ، وهذا في سيد الإستغفار (**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّيَ خَلَقْتَنِيْ وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَّاإِسْتَطَعْتَ، أَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، وَأَبُوْءُ لَكَ بِذَنْبِيْ وَأَبُوْءُ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، فَإِغْفِرْ لِيْ فَإِنَّهُ لَايَغْفِرُ الذُّنُوْبَ الإِ أَنْتَ** ...) فمن الآن نتقي الله، ولا نسوف ولا نجمع على أنفسنا عند موتنا حسرتان، حسرة فوات التوبة، وحسرة سكرات الموت، نستغفر ونلحُّ على الله، ولا نركن أن توبتنا قبلت، ولا نأمن مكر الله... فتش عن ذنوبك وأقلع عنها قبل فوات الأوان!.

شرع رسول الله ﷺ من أذكار الصباح والمساء التوبة، إن لم نعمل به نحن من يعمل به؟! الغرب؟! الكافرون ؟!أم نحن أهل القرآن؟!.

الشرط الثاني : العزم على عدم العودة...

ويعينك على ذلك ترك موضع المعصية ، ومفارقة من أعانك، يقول الله عز وجل

(١) سورة هود آية ٣ .
(٢)سورة الحجرات ١١ .

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[1]، فقرناء السوء سيلعن بعضهم بعض يوم القيامة، فعلى التائب مفارقتهم، والتحذير منهم إنْ عجز عن دعوتهم، وهناك حالات كثيرة رجع فيها أشخاص إلى المعصية بإعادة العلاقات مع قرناء الماضي، ويعينك على ذلك إختيار رفقاء صالحين، وإتلاف المحرمات الموجودة من آلات لهو وصور وأفلام محرمة وقصص وتماثيل يجب تكسيرها حتى لايزين الشيطان العودة إليها، ويكون سبب في الإنتكاس .. نسأل الله الثبات.

واعلم أن من مكملات التوبة عنصر مهم جدًا وهو الإخلاص. أي أن يكون ترك الذنب لله لا لشيء آخر، كعدم القدرة على معاودته، أو خوف كلام الناس مثلًا، أو لأنها تؤثر على جاهه، وسمعته بين الناس، أو ربما طرد من وظيفته أو ترك الذنب لحفظ صحته.

الشرط الثالث : الندم على ما فات...

أن نستغفر قبح الذنب وضرره فلا يصح مع التوبة الشعور باللذة والسرور حين تتذكر الذنوب الماضية. نعم كما قال ﷺ : " **إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ ، فَقَالَ بِهِ : هَكَذَا** "[2].

ويقول ابن القيم ضع أضرار الذنوب أمام عينك، وهي كثيرة منها حرمان العلم، قلة التوفيق، تعسير الأمور، وهن البدن، حرمان الطاعة، ضيق الصدر، تولد السيئات، إعتياد الذنوب، هوان المذنب على الله، وهوانه على الناس، لعنة البهائم له، الطبع على القلب، الدخول تحت اللعنة، منع إجابة الدعاء، إنعدام الغيرة، ذهاب الحياء، زوال النعم، نزول النقم، الوقوع في أسر الشيطان، سوء الخاتمة، عذاب الآخرة.

(١)سورة الزخرف آية ٦٧ .
(٢)رواه البخاري

الشرط الرابع: إرجاع الحقوق لمن ظلمهم أو طلب البراءة منهم...

واستدراك مافات من حق الله كإخراج الزكاة التي تركها في الماضي يعد من مكملات التوبة.

يقول ابن القيم -رحمه الله- : لأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا، فإن لم تف تطهيرهم، طهروا في نهر جهنم، إذا لم يشأ الله أن يغفر لهم يوم القيامة، نهر التوبة النصوح، نهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، نهر المصائب العظيمة المكفرة، فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة، فورد يوم القيامة طاهرًا.. وأن مما يحثك على التوبة معرفة فضائلها. هل عملت فضائل التوبة وأسرارها؟!.

اعلم أن للتوبة فضائل عظيمة وأسرار بديعة وفوائد متعددة فمن ذلك:

التوبة سبب للفلاح والفوز بسعادة الدارين، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يتلذذ ولا يُسر ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابه إليه.

التوبة تكفر السيئات. فإذا تاب العبد توبه نصوحه، كفر الله بها جميع ذنوبه وخطاياه، أي يمسحها كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[1].

التوبة تبدل السيئات حسنات. إعلم أنه إذا حسنت التوبة، فإن الله يبدل السيئات حسنات، إقرأ قول الله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾[2]، وهذه من أعظم البشائر للتائبين إذا أقتربت توبتهم بإيمان وعمل صالح.

---

(١)سورة التحريم آية ٨ .
(٢)سورة الفرقان آية ٧٠ .

*يقول ابن عباس ما رأيت النَّبي ﷺ فرح بشيء فرحه بهذه الآية لما نزلت، فمن أصر على العصيان بعد هذه البشري فقد أوجب لنفسه جهنم.

التوبة سبب للمتاع الحسن، وزيادة القوة والإمداد بالأموال والبنين، إقرأ قول الله تعالى ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾[1]، وقال تعالى على لسان هود عليه السلام ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[2]، فمن أراد الرزق من أراد الولد، من أراد الفلاح، من أراد تكفير الذنوب، فعليه بالتوبة والاستغفار، أقرأ قول الله على لسان نوح عليه السلام ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾[3].

التوبة يحبها الله ويحب صاحبها لأن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله وأكرمها فللتائبين عند الله محبة خاصة قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[4].

الله يفرح بتوبه التأبين. نعم الله جلَّ في علاه يفرح بتوبتك حين تتوب إليه... عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : "قَدِمَ عَلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ بِسَبْيٍ فَإِذَا إِمْرَاءَةٌ مِنْ السَّبْيِ يَتَحَلَّبُ ثَدْيَهَا كُلَّمَا وَجَدَتْ صَبِيا فِيْ السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَالْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا، فَقَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ، قَالُوْا : لَا وَاللهِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاتَطْرَحَهُ فَقَالَ : وَاللهُ للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِوَلَدِهَا "[5].

(١) سورة هود آية ٣.
(٢) سورة هود آية ٥٢ .
(٣)سورة نوح آية ١٠:١٢ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٢٢ .
(٥)اسناد حسن .

أخطاء في التوبة :

هناك أخطاء في التوبة يقع فيها كثير من الناس ، وذلك نتيجة الجهل بمفهوم التوبة، أو نتيجة اللامبالاة. من هذه الأخطاء :

تأجيل التوبة: فمن الناس من يدرك خطأه، ويدرك حرمة ما يقع فيه، لكنه يؤجل التوبة ويسوف فيها، فمنهم من يؤخرها إلى بعد الزواج، ومنهم إلى بعد التخرج، ومنهم يؤجلها ريثما يتقدم به السن، إلى غير ذلك من دواعي التأجيل، وعلى العبد أن يتوب من الذنب. بل تأخير التوبة في حد ذاته ذنب يحتاج إلى توبة.

واعلم أن العبد ما دام يأمل الحياة لذاتها، فإنه لا يقطع أمله في الدنيا، وقد لا تسمح نفسه بالإقلاع عن لذاتها وشهواتها من المعاصي، وغيرها ويرجيه الشيطان بالتوبة في آخر عمره، فإذا يتقن الموت وآيس من الحياة أفاق من غفلته، فندم ندمًا يكاد يقتل نفسه على ما فرط، وطلب حينها الرجعة إلى الدنيا، ليتوب وليعمل صالحًا كما قال ربنا تبارك وتعالى في كتابه : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (١).

وقد حذر الله في كتابه فقال ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ (٢).

ثم أن ترك المبادرة بالتوبة مدعاة لصعوبتها، وسبب لفعل ذنوب أخرى ، قال ﷺ " **إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِذَا تَابَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ**

(١)سورة المؤمنون آية ٩٩ - ١٠٠ .
(٢)سورة الزمر آية ٥٤ - ٥٧ .

قَلْبُهُ مِنْهَا، وَإِذَا زَادَتْ حَتَّى يُغَلَّفَ قَلْبُه. فَذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (١).

الغفلة عن التوبة مما لا يعلمه العبد من ذنوبه :

فكثير من الناس لا تخطر في باله هذه التوبة، فتراه يتوب من الذنوب التي يعلم أنه قد وقع فيها، ولا يظن بعد ذلك أنه عليه ذنوب غيرها، وهذه من الأخطاء، فهناك ذنوب خفية وهناك ذنوب يجهل العبد أنها ذنوب ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة من ذنوبه التي يعلم، ومن ذنوبه التي لا يعلم، فإن مما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر من ذنوبه التي يعلم. ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنًا من العلم.

قال رسول الله ﷺ : " الشِّرْكُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ " فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَكَيْفَ الْخَلَاصُ يَا رَسُولَ اللهِ ؟! قَالَ أَنْ تَقُولَ " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا اعْلَمُ وَاسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ " (٢) فهذا دعاء يجب الحرص عليه، وقد ورد عن النَّبي ﷺ أنه كان يقوله بعد التشهد وقبل التسليم.

وجاء عنه ﷺ أنه كان يدعو في صلاته"اللَّهُمَّ أَغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَاأَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي. إِنَّكَ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ"(٣)،وفي حديث آخر " اللَّهُمَّ أَغْفِرْ ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ ، وَعَلَانِيَتَهُ وَسُرَّهُ " فهذا التعميم وهذا الشمول توبة مما يعلمه العبد ومما لايعلمه من ذنوبه.

ترك التوبة مخافه الرجوع في الذنب:

فمن الناس من يرغب في التوبة، ولكنه لا يبادر إليها مخافة أن يعاود للذنب مرة أخرى ، وهذا خطأ، فعلى العبد أن يبادر بالتوبة إلى الله فلربما أدركه الأجل وهو لم

(١) سورة المطففين آية ١٤ .
(٢) البخاري في الأدب المفرد ٧٣٨ .
(٣)صحيح البخاري (٦٣٩٨)

ينقض التوبة. وعليه أن يحسن الظن بربه جل وعلا ويستحضر أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه. وأنه تعالى عند ظن عبده به قال النَّبي ﷺ قال الله عز وجل : " أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ ذَكَرَنِي " (١). وهذا خبر عن الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٢).

ترك التوبة خوفًا من لمز الناس :

من الناس من تحدثه نفسه بالتوبة ولزوم الإستقامة، ولكنه يخشى لمز بعض الناس، ووصفهم له بالمشيخة والتشدد. فبعض الجهلة يقصر عن التوبة خوفًا من اللمز والعيب. وهذا خطأ فادح، فكيف يقدم خوف الناس على خوف رب الناس، ثم أن ما يرمى به إذا هو تاب إنما إبتلاء وإمتحان ليمتحن هل هو صادق أم كاذب في توبته فإذا صبر في البداية هان عليه ما يلقاه، وربما يقتدي به غيره مما كانوا يلمزونه، وهل الإنسان يذهب إلى ربه كيف ؟! يذهب وحيدا، ويحشر وحيدا، ويقف أمام ربه وحيدًا، لا ينفعه فلان ولا فلان مما يلمزونه.

ترك التوبة خشية سقوط المنزله وذهاب الجاه والشهرة :

قد يكون الشخص ذو منصب وشهرة لا تطاوعه نفسه على إفساد ذلك بالتوبة، فذلك نقص في ديانة المسلم وشجاعته ومرؤته وعمله، ثم إن الشهرة والجاه عرض زائل، ومنتهى بنهاية الإنسان، ولن ينفعه إذ هو قدم على الله إلا ما قدم من عمل صالح.

ثم أنه إذا ترك الشيء لله يعوضه الله خيرًا منه في الدنيا والآخرة، والعوض من الله أنواع مختلفة، وأجّلّ ما يعوض به أنه يأنس بالله، وأن يرزق محبته، وطمأنينه القلب بذكره تعالى .

---

(١)رواه البخاري ومسلم .
(٢) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

التمادي في الذنوب اعتمادًا على سعة -رحمه الله-:

فمن الناس من يسرف في المعاصي، فإذا ليم في ذلك قال إن الله غفور رحيم، لاشك أن هذا سفه وجهل وغرور. - فرحمة الله- قريب ممن؟! من المحسنين لا من المسيئين المفرطين المعاندين إن الله غفور رحيم لمن ؟! ، لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى ، كما قال سبحانه وتعالى :﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ (١)، لُعِنَ إبليس وأُهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أُمِرَ بها، أُخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، حُجِبَ القاتل عن الجنة بعد أن رآها عيانًا بملئ كف من دم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل، وأمر بإيساع الظهر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرة من سكر، وأبان عضو من أعضائك ثلاثة دراهم ، (ودخلت إمرأه في هِرة، وأن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) .

فمن كان هذا صفته فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة، فالله مع عفوه ورحمته شديد العقاب كما قال عن نفسه: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ (٢) .

تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي ∴ درك الجنان بها وفوز العابد

نسيت أن الله أخرج آدما ∴ منها إلى الدنيا بذنب واحد

ثم أين تعظيم الله في قلب هذا التمادي؟! وأين محبته والحياء منه عز وجل ؟! .

فحسن الظن ورجاء الرحمة إنما يكون مع الأخذ بأسباب النجاة، ولا يصح إلا مع من تاب وندم وأقلع وبدل السيئة بالحسَنَة، واستقبل بقية عمره بالطاعة، ثم حسن الظن بعدها، فهذا حسن الظن، والأول غرور وسفه وجهل.

---

(١) سورة طه آية ٨٢ .

(٢) سورة الحجر آية ٤٩، ٥٠ .

الإغترار بإمهال الله للمسيئين:

فمن الناس من يسرف على نفسه بالمعاصي، فإذا حذر من عاقبتها قال ما بالنا نرى أقوامًا قد إمتلأت فجاج الأرض بمفاسدهم وظلمهم، وقتلهم للنفس بغير الحق، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأكلهم الربا وقد نهو عنه، ومع ذلك تراهم وقد درت عليهم الأرزاق، ويعيشون في رغد ونعيم؟! لا شك أن هذا القول لا يصدر إلا من جاهل بالله وسُنَّته عز وجل في كونه. نقول لهذا وأمثاله رويدك رويدك، فإن الله يعطي الدنيا من أحب ومن لا يحب، وهؤلاء المذكورون متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون، فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم.. فما هذا النعيم الذي هم فيه إلا استدراج وإمهال وإملاء من الله حتى إذا أخذهم. أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قال الله عز وجل، أسمع قو الله تعالى فيهم ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[2] هذه هي سُنَّة الله في كونه ، فكل ظالم معاقب في العاجل قبل الآجل، وكذلك كل مذنب ذنبًا وهو معنى قول الله تعالى ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[3] وربما رأى العاصي سلامة بدنه فظن أن لاعقوبة وغفلته مما عوقب به عقوبة.

اليأس من رحمة الله :

من الناس من إذا أسرف على نفسه بالمعاصي، أو تاب مرة أو أكثر ثم عاد إلى الذنب آيس من التوبة، وظن أنه ممن كتب عليه الشقاوة، فاستمر في الذنوب، وترك التوبة إلى غير رجعة ، فهذا ذنب عظيم، وربما كان أعظم من الذنب الأول الذي

(١) سورة الأنعام آية ٤٤، ٤٥.
(٢) سورة يونس آية ٩٢ .
(٣) سورة النساء آية ١٢٣ .

أرتكبه لأنه ﴿ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1].

ثم اسمع هذا الحديث وأبشر:

قال الإمام أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال ﷺ " أَنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ رَبِّ إِنِّيَ أَذْنَبْتُ ذَنْبا فَأَغْفِرْهُ لِيَ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدِيَ عَمِلَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ به، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِيَ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبا آخَرَ فَقَالَ رَبِ إِنِّيَ عَمِلْتُ ذَنْبا فَأَغْفِرْهُ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ عَبْدِيَ أَنَّ لَهُ رَبًا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ به قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِيَ. ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبا آخَرَ فَقَالَ رَبِّ إِنِّيَ عَمِلْتُ ذَنْبا فَأَغْفِرْهُ لِيَ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ عَبْدِيَ أَنَّ رَبًا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ به قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِيَ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبا آخَرَ فَقَالَ رَبِ إِنِّيَ عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : عَلِمَ عَبْدِيَ أَنَّ لَهُ رَبًا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيأْخُذ بِهِ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّيَ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا يَشَاءُ" [2].

فجدد التوبة وأكثر الإستغفار، ولا تيأس من روح الله، ولتجاهد نفسك في -رحمة الله-.

الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي :

هناك من يحتج بالقدر على فعل معاصيه وعلى ترك الطاعات فإذا قيل له مثلًا: لماذا لا تصلي قال أراد الله ذلك. ومتى ستتوب قال إذا أراد الله ذلك. وهذا خطأ وضلال وإنحراف.

فالاحتجاج بالقدر على هذا النحو مخاصمة لله، واحتجاج من العبد على الرب، وحمل للذنب على الأقدار، فلا عذر لأحد البتَّه في معصية الله، ولو كان له عذرًا لما استحق العقوبة لا في الدنيا ولا في الآخرة. ونفس المحتج بالقدر لو اعتدى عليه، واحتج المعتدي بالقدر، لم يقبل منه ذلك، فتناقض القول دليل فساده وبالجملة

(١) سورة يوسف آية ٨٧ .
(٢) رواه البخاري .

فالإحتجاج بالقدر يصوغ عند المصائب.

توبة الكاذبين:

الذين يهجرون الذنوب هجرًا مؤقتًا لمرض أو مناسبة أو رجاء جاه أو خوف سقوطه فإذا وافتهم الفرصة رجعوا إلى ذنوبهم فهذه ليست التوبة. ولايدخل في ذلك من تاب فحدثته نفسه بالمعصية أو أغواه الشيطان بفعلها ثم فعلها فندم وتاب فهذه توبة صادقة .

إليك أمور تعين على التوبة الصادقة:

(١) الإخلاص:

إعلم رحمك الله أن الإخلاص لله من أنفع الأدوية، فإذا أخلصت لربك، وأقبلت عليه، وصدقت في طلب التوبة، أعانك الله عليها، وأمدك بالطاف لا تخطر بالبال، وصرف عنك الآفات التي تعترض طريقك وتصدك عن التوبة، ذاك أن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص والمحبة له لم يكن شيء عنده أحلى ولا ألذ ولا أطيب من ذلك. ولهذا تجد الإنسان يغلب عليه هواه قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله، والإخلاص له فإذا ذاق طعم الإخلاص، قوي قلبه، وانقهر هواه بغير علاج. فهذه فائدة جليلة أنه إذا كنت مخلص لله إجتباك ربك، فأحيا قلبك، وأجتذبه إليه، فيصرف عنك ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء. ويخاف من ضدد ذلك، بخلاف القلب الذي يخلص لله، فإن فيه طلبًا وإرادة وحبًا مطلقًا، فيهوى كل ما يسنح له، فتارة تجتذبه الصور المحرمه وغير المحرمه، فيبقى أسيرًا لمن لو أتخذه هو عبدًا لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًا، وتاره تجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده من ثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق، وتاره يستعبده الدرهم والدينار. وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فتجد إلهه هواه، ويتبع بغير هدى من الله.

فإن كنت خالصًا لله عبدًا له، فقد صار قلبك معبدًا لربك، بحيث يكون الله أحب إليك مما سواه. وتكون ذليلًا خاضعًا لربك، وإلا إستعبدتك الكائنات، وأستولت على قلبك الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله..

(٢) إمتلاء القلب من محبة الله:

المحبة أعظم محركات القلوب، وهو الباعث الأول للأفعال والتروك.

واعلم أن قلبك إذا خلا من محبة الله، تناوشته الأخطار، وسلطت عليه سائر الرغبات والمحبوبات، فشتته ومزقته وذهبت به كل مذهب، أما إذا امتلأ قلبك من محبة الله، بسبب العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، كمل أنسه، وطاب نعيمه، وسلم من التعلق بسائر الشهوات، وهان عليه فعل سائر القربات..

فبالحب وحده تقع جماجم المحاربين على الأرض، كأنها الدنانير لأنهم أحبوا مبدأهم، وتسيل نفوسهم على شفرات السيوف لأنهم أحبوا رسالتهم. أحب الصحابة المنهج وصاحبه والرسالة وحاملها والوحي ومنزِّله. فتقطعوا على رؤوس الرماح طلبًا للرضا في بدر وأُحد وحنين، وهجروا الطعام والشراب والشهوات في هواجر مكة والمدينة، وتجافوا عن المضاجع في ثلث الليل الغابر، وانفقوا النفائس طلبًا لمرضاه الرب جلا وعلا، بالحب صاح حرام بن ملحان مقتولًا: فزت ورب الكعبة[١]، بالحب نادى عمير بن الحمام إلى الجنة مستعجلًا: إنها حياة طويلة إذا بقيت حتى آكل هذه الثمرات[٢]، بالحب صرخ عبد الله بن عمرو الأنصاري: اللهم خذ من دمي هذا اليوم حتى ترضي[٣]، لما أحب الخليل عليه الصلاة والسلام صارت له النار بردًا وسلامًا، ولما أحب الكليم موسى عليه السلام ، انفلق له البحر، ولما أحب

(١) أخرجه البخاري ومسلم برقم (٦٧٧).
(٢) أخرجه مسلم(١٩٠١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٧١).

خاتمهم حن له الجذع[١]، وانشق له القمر[٢].

المحب عذابه عذب، واستشهاده شهد، لأنه محب، بالحب يثور النائم من لحافه الدافئ، لصلاة الفجر.

فبالحب يتقدم المبارز إلى الموت مستثقلاً الحياة، وبالحب تدمع العين، ويحزن القلب، ولا يقال إلا ما يرضى الرب. فأجدر بك أن أردت إلانابة إلى الله أن تملأ قلبك من محبته تعالى، ففى ذلك سروره ونعيمه ، لأنها من أقوى الأسباب في الصبر على فعل الطاعات وترك المحرمات، فإن المحب لمن يحب مُطيع وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان فعلك للطاعات وتركك للمحرمات أيسر.

فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرعي جوارحه، وعلامة صدق هذه المحبة شهود هذا المراقب ودوامه.

كان عبد الله ذو البجادين يتمًا في الصغر، فكفله عمه، فنازعته نفسه إلى متابعة الرسول ﷺ فهمَّ بالنهوض، فإذا به يحدث نفسه أنتظر عمى يُسلم ونذهب معًا لرسول الله ﷺ، فلما طال إنتظاره لإسلام عمه، نفذ صبره، وناداه ضمير الوجد، فقام إلى عمه قائلًا له يا عم طال إنتظاري لإسلامك، ولا أرى منك نشاطًا، فقال والله لئن أسلمت لانتزعن كل ما أعطيتك، فصاح لسان الشوق منه: نظرة من محمد ﷺ أحب إلى من الدنيا وما فيها، فلما تجرد السير إلى رسول الله ﷺ جرده عمه من ملابسه، فناولته أمه بجادًا (لباسًا) فقطعه نصفين، رداءً وإزارًا، وفي طريقه لرسول الله نادى صاح الجهاد، وما هي إلا ساعات حتى كان في الصف الأول للجهاد، ولقى مصرعه، ولما قضي، نزل الرسول يمهد له لحده، وجعل يقول اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارض عنه، فصاح ابن مسعود ياليتني كنت صاحب القبر"[٣].

(١) البخاري (٩١٨).
(٢) البخاري (٣٦٣٦) ومسلم (٢٨٠٠).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الإصطفاء ص١٢٢ .

فالمحبة أنفع ما يعالج القلب، وهي أصل العبودية، وهي جنة القلب وقوته وحياته، وهي أعظم واجبات الدين، والله إن القلب لا يفلح ولا يصلح ولا يستقيم ولا ينعم ولا يطمئن إلا بمحبته تعالى .

روى البخاري حديث أنس ﷺ " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيْمَانِ: أَنْ يَكُوْنَ اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الرَّجُلَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلّٰهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُوْدَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللّٰهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ "(١).

كل الحديث محوره أن محبة الله هم أعظم وجبات الدين، و أكثر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، واعلم أنك لا تزال منقطعًا عن الله حتى تتصل إرادتك ومحبتك بوجهه الأعلي، فتتعلق به وحده، وتتصل المعرفة لك باسمائه وصفاته وأفعاله، ويتصل ذكرك بذكره سبحانه، فتزول بين الذاكر والمذكور حجب الغفلة.

عندها سيتصل العمل بأوامره ونواهيه، فتفعل الطاعة لأنه تعالى أمرك بها وأحبها، وتترك النهي لأنه تعالى نهاك عنه وأبغضه.

ويتصل التوكل والحب به حيث تصير واثقًا به سبحانه، مطمئنًا إليه، راضيًا بحسن تدبيره لك، غير متهم له في حال من الأحوال.

ويتصل فقرك وفاقتك به سبحانه دون سواه، ويتصل خوفك ورجاءك وفرحك وسرورك به وحده، فلا تخاف غيره، ولا ترجو غيره، ولا تفرح إلا به، وإن نالك بالمخلوق بعض الفرح والسرور فليس الفرح التام والسرور الكامل.

فإن أتصلت لك هذه الأمور بالله سبحانه، فقد وصلت، وإلا فأنت مقطوع عن ربك، متصل بحظك ونفسك وملبَّس عليك في معرفته وإرادته وسلوكه .

ومعيار المحبة آية البينة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

(١) رواه البخاري ومسلم .

ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[١].

فبقدر ما معك من متابعه لمحمد ﷺ باطنًا وظاهرًا، بقدر ما يكون معك من محبة لله تعالى التي تصلح القلوب وتعين على التوبة الصادقة.

تعصي الإلـه وأنـت تـزعـم حبه ∴ هـذا محـال في الـقـيـاس بديع

لـو كـان حبك صـادقًـا لأطعته ∴ إنَّ المـحـب لمـن يحـب مطيع

نقطة لطيفة يجب التنبيه إليها، وهي أن تلك المحبة لابد وأن تقرن بإجلال الله وتعظيمه ، فذلك يوجب الحياء والطاعة، ذلك أن المحبة الخالية عنهما، لا تحمل على ترك المعاصي، وإن أوجبت نوع أنس واشتياق، فما عُمِّر القلب بشيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه.

(٣) المجاهدة :

فهي عظيمة النفع، كثيرة الجدوى، معينة على الإقتصار على الشر، دافعة إلى المبادرة إلى الخير، ذلك أن النفوس طلعة إلى الشرور، ومؤثرة للكسل والبطالة، فإذا قدت نفسك وجاهدتها في ذات الله، فأبشر بالخير والإعانة والهدايه ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[٢] ، و"من صدَّق الله صدَّقه الله ".

وتأمل الحديث القدسي يقول الله تعالى : " **مَنْ عَادَ لِيَ وَلِيا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهِ الَّتِي تَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا** " [٣]، أي أن الله يسدده في هذه الأعضاء، ويوفقه لإستعمالها في طاعته. السمع يسدده فيه،

(١)سورة آل عمران آية ٣١ .
(٢)سورة العنكبوت آية ٦٩ .
(٢) رواه البخاري

فلا يسمع إلا ما يرضي الله، وما فيه الخير والصلاح، ويعرض مما يغضب الله فلا يستمع إليه، ويكون ممن إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه. البصر يسدده فيه، فلا ينظر إلا إلى ما يحب الله النظر إليه، ولا ينظر إلى المحرم، ولا ينظر نظرًا محرمًا. ويده فلا يعمل بيده إلا ما يرضى الله، لأنه مسدده فيها، ورجله فلا يمشي إلا إلى ما يرضي الله، ولا يسعى إلا لما فيه الخير، فبالتقرب إلى الله بالنوافل، يسهل عليك الطاعات، وإجتناب المحرمات تسديدًا وتسيرًا.

فجاهد نفسك على النوافل حتى توجب لك محبه الله، فيسددك ويعينك، ولا تعني المجاهدة مرة ولا مرات ولكن المجاهدة حتى الممات...

(٤) قصر الأمل وتذكر الآخرة:

دائمًا وأبدًا أيها الحبيب تذكر قصر الدنيا، وسرعة إنقضائها وزوالها، وأدركت أنها مزرعة للآخرة، وأنها فرصة لكسب الأعمال الصالحة، واستحضرت ما في الجنة من نعيم، وما في النار من النكال، والعذاب الأليم، كففت عن الإسترسال في المعصية والشهوات، وأنبعثت إلى التوبة النصوح، وتداركت حاجات من الأعمال الصالحات، فالتوبة ليست فقط عن فعل المحلامات، بل أيضًا عن ترك الطاعات.

*ولا تنسى قول ابن عمر رضي الله عنهما " **كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ** "، فتيقن رحمك الله أنه ما تصفوا الأعمال ولا الأحوال إلا بتقصير الآمال، فإن كل من عد ساعته الذي هو فيها كمرض الموت حسنت أعماله، فصار كل عمره صافيًا، ووالله ما الوهن والضعف الذي تعيشه أمتنا الإسلامية الحبيبة اليوم إلا حب الدنيا، وكراهية الموت، واقرأ حديث ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ يقول: "**يُوشِكُ أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، قَالَ قُلْنَا أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، قَالَ :**

قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ؟ ، قَالَ : حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ " (١) .

(٥) الإشتغال بما ينفع وتجنب الفراغ:

لأن الفراغ يأتي على رأس الأسباب المباشرة إلى الإنحراف، والشذوذ وإدمان المخدرات، ويقود إلى رفقة السوء، ويتسبب في تدهور الخلاق، فإذا اشتغلت بما ينفع في دينك ودنياك، قلّت بطالتك، ولم تجد فرصة للفساد ولا للإفساد. فالنفس إن لم تشغلها بالطاعات أشغلتك بالمعاصي،وخير ما تنشغل به معرفة الله-عز وجل- أسماءه ، وصفاته ، وأفعاله ، وحفظ كلامه وتدبره .

(٦) البعد عن المثيرات وما يذكر بالمعصية:

إبتعد عن كل ما يثر دواعي المعصية ويثر الشهوة، ويحرك الغريزة من مشاهدة الأفلام، وسماع الأغاني وقراءة الكتب السيئة، والمجلات الخليعة الساقطة.

واعلم أنه لا مشقة في ترك المألوف إرضاءً لله عز وجل إنما تجد المشقة في ترك المألوف من تركها لغير الله. فاترك ما ألفته من المعاصي صادقًا مخلصًا من قلبك لله فلن تجد في تركها مشقة إلا في أول وهله ليمتحن الله صدقك في تركها فإن صبرت على تلك المشقة قليلًا استحالت لذة ووالله من ترك شيء لله عوضه الله خير منه في الدنيا والآخرة والعوض أنواع مختلفة وأجلّ ما يعوض به والعبد الأنس بالله ومحبته وطمانينة القلب ونشاطه وفرحة ورضاه عن ربه.

(٧) مصاحبة الأخيار ومجانبة الأشرار:

إن الأخيار هم قوم لا يشقي جليسهم، مصاحبة الأخيار تحي قلبك وتعينك على الخير، وتبعثك على الإقتداء بأهل الصلاح، وتكفك عن الفساد، وهي سبب للمغفرة، قال : " **مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ عَلَى ذِكْرٍ فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ إِلَّا قِيلَ لَهُمْ قُوْمُوْا مَغْفُوْرًا لَكُمْ** "(٢).

بعكس رفقة السوء، فإنها تحسن القبيح، وتقبح الحسن، وتقودك إلى الإقتداء

(١) حديث حسن عن ثوبان (٥/ ٣٦٥) وقد جاء بسند آخر عند احمد فيه ضعف.
(٢) رواه البخاري .

بأهل السوء، فالصاحب ساحب، والطبع إستراق، يحكي أخ قصته مع صديق له، يقول أحبه في الله، يقول قبل أعوام كنا صديقين لا نفترق ، تربينا معًا على عقيدة صادقة، صالحة فأحببته في الله، وأحبني فيه، رافقته من الدهر أيامًا ورافقني، كنا نجتمع على ذكر الله، وحفظ كتاب الله ، إلى أن جاءت تلك اللحظات التي جعلت من أيام الدهر خناجرًا تخترق القلوب، إنها ساعات الفراق الصعبة فرحلت عنه، وأنا أحمل له في قلبي صورة لن تنسى مهما مر عليها الدهر، مرت الأيام والساعات لأجد نفسي قضيت ثلاث سنوات في الغربة، وحان موعد العودة، فوقفت في المطار أتذكر لحظات من ذلك الماضي، وتذكرت ذلك الصديق الذي كان ينتظرني، ومن حبي له نزلت عليه شوقًا لرؤيته، ولكن شعرت بشيء غريب يتسلل إلى نفسي، ليست ملامح وجهه التي عرفتها، ليست محياه الذي كان يشع إيمانًا، فعلمت أن الدهر قد أختاره ليكون واحدًا من أشقياء هذه الدنيا، فشعرت بالحزن يشق أعماقي. حاولت أن أعيده إلى الطريق، أذكره بالماضي، صرخت فيه قائلًا أنسيت القرآن ؟! أنسيت البقرة وآل عمران؟! أنسيت النور والأنفال؟! أنسيت التوبة؟! أنسيت صيام الإثنين والخميس ؟! أنسيت ... أتسمعني؟! أين القيام ؟! أين السجدات والركعات ؟! تذكر كيف كنت مع ربك، ولكن هيهات ... لم يستجيب لي قد أغلق قلبه قبل سمعه، وعدت إلى البيت وفوق رأسي سحابة سوداء، واستلقيت على سريري، ولكن أين النوم ؟! أرى من يحدثني، ويحك أتنام وتترك خير أصدقائك في يد الأشرار من أصدقائه؟! فلم أجد إلا البكاء يملكني ... وبعد ثلاث أيام ذهبت أسأله. مالذي رسى عليه، فلم أجده، ولكن أخاه أخبرني أنه خرج في رحلة مع أصدقائه وصديقاته. حاولت مرات ومرات معه ولم أستطع الوصول إلى قلبه. فتركته ونسيت السنوات الماضية، يقول المهم بلغت من العمر ٢٦ عامًا وتزوجت بإمرأة أعانتني على الاستمرار في الطريق، وفي ذات يوم دق الهاتف أنت محمد ؟ نعم، أنا زوجة صديقك أحمد، وأنا في حاجة إليك، يقول أول الأمر تجاهلتها،

ولكنها ألحتَّ فذهبت إليها، قالت صديقك أحمد، لم أراه في الشهر مرة أو مرتين، صار مدمن مخدرات، والآن لا أعرف أين هو، وإبنه مصاب بمرض خطير، يريد المستشفى فابحث عنه. يقول خرجت في كل مكان هائماً أبحث عنه فلم أجده، وفي الأخير تذكرت أحد البارات التي اعتاد أولئك البؤساء أمثال أحمد أن يدخلوها، فوجدتهم يجتمعون حول شيء، فنظرت فإذا به أحمد ملقى صريعًا بينهم، فرميت نفس أُقبِّلَه وأطلب منه أن يسامحني، لأني أهملت نصحه، ووصيتي أكتبها بعبراتي أوصيكم بأصدقائكم خيرًا أن كنتم سواءً على خير.

فاعلم أنه ما بعد تقوى الله من كنز أغلى من الأخ الصالح، وإنك إن تنقل الأحجار مع الإبراء خير لك من أن تأكل الثمار مع الأشرار الفجار.

فيكفيك من محبة الأخيار مجالستهم، أنها تؤدي إلى محبة الله، وأعظم ثمار هذه المحبة الإستظلال في عرش الرحمن يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، يوم يناديهم ربهم أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي، ويكفيك أنك تصل إلى درجتهم وإن لم تعمل بعملهم، لأن المرء مع من أحب، كما قال أحدهم إني أحب أبا بكر وعمر ولم أبلغ عملهم، قال عليه الصلاة والسلام "الْمَرْءِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ" (١).

(٨) النظر في العواقب:

فذلك يوقفك على حقائق الأشياء، ويريك الأمور كما هي، وما أتى أكثر الناس إلا من قبل غفلتهم وجهلهم بالعواقب، ولو نظرت وتفحصت أثار اللذة العاجلة الفانية، وما تؤديه من حرمان اللذات الآجله الباقية لما استرسلت في المعاصي.

(٩) استحضار فوائد ترك المعاصي :

ففي الدنيا تجد المروءة، وصون العرض، وحفظ الجاه، وصلاح المعاش، ومحبة

(١) حسن صحيح .

الخلق، وطيب النفس، وإنشراح الصدر، وقلة الهمّ والغمّ والحزن، وعز النفس عن إحتمال الذل، وصون نور القلب أن تطفئه ظلمة المعصية، وتسهيل الطاعات، وزوال الوحشة بينك وبين ربك، وعدم الخوف من الموت، فأن مت تلقتك الملائكة بالبشرى من ربك بالجنة، وبإنه لا خوف عليك ولا حزن، وتنتقل من سجن الدنيا إلى روضة من رياض الجنة، تنعم فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة كان الناس في الحر والعرق وأنت في ظل عرش الرحمن، فإذا انصرفوا بين يدي الله، أخذ بك ذات اليمين مع أوليائه المتقين و﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾[1]. نسأل الله من فضله.

(١٠) إستحضار أضرار الذنوب والمعاصي:

منها حرمان العلم والرزق، والوحشة التي يجدها العاصي بينه وبين ربه، وبينه وبين الناس، تعسير الأمور، وظلمة القلب، ووهن البدن، وحرمان الطاعة، وتقصير العمر، ومحق البركة. ثم أن المعاصي تزرع أمثالها، وتقوى في القلب إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا إلى أن تنسلخ إرادة التوبة من القلب، فعندها يستحسن المعصية ويستقبح الحسنَة، ثم إن المعاصي سبب لهوان العبد على ربه، وتورث الذل، وتفسد العقل، وتدخل العبد تحت اللعنة، وتحرمه من دعوة الرسول والملائكة والمؤمنين، ثم إنها تذهب الحياء، وتضعف في القلب تعظيم الرب، وتستدعي نسيان العبد لربه، وتخليته بينه وبين نفسه والشيطان.

إذا استحضر مرتكب المعصية هذه الأضرار كان حري به أن يقلع عنها ويحذر منها.

---

(١) سورة الجمعة آية ٤ .

(١١) الدعاء:

فهو والله الذي لا إله إلا هو لمن أعظم الأسباب، وأنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، بل ويمنع نزوله، ويرفعه ويخففه إذا نزل .. ومن أعظم ما سأل ويدعي به سؤال الله التوبة الصادقة، وذلك بأن تدعو ربك أن يمن عليك بتوبة نصوح، مهما كان حالك، فكما قلت وأكرر إن التوبة لا تكون فقط عند فعل المعاصي، بل عند التفريط في الطاعات، وبأن تتحرى الأوقات والأحوال والأوضاع التي هي مكان الإجابة، كالدعاء في السجود كما قال ﷺ **"أَقْرَبُ مَا يَكُوْنُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوْا الدُّعَاءَ "**(١) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه وفي آخر الليل وبين الأذان والإقامة وفي حال إقبال القلب على الله واشتداد الإخلاص، وأن تتجنب موانع الإجابة، ولا تمل الدعاء ولا تستعجل الإجابة ، فمن يطرق باب الرحمن ويشتد في الطرق فإنه يوشك أن يلج.

(١٢) النظر في حال العصاة :

فإن ذلك يقصر في التمادي في الذنوب، ويقود العاقل إلى التوبة النصوح.

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية " – انظر في حال المسرفين على أنفسهم بالمعاصي، تجدهم أكثر الناس فجورًا وفسادًا وطلبًا لما يروِّحون به عن أنفسهم من مسموع ومنظور ومشموم وملبوس ومأكول ومشروب ، ومع هذا لا تطمئن قلوبهم، ولا تهدأ نفوسهم بشيء من ذلك. وهم أعظم الناس خوفًا، وتجد العاجز منهم في عذاب عظيم، لا يزال في أسف على ما فاته، وعلى ما أصابه، وأما المؤمن فهو مع قدرته، له من الأعمال الصالحة، والعلوم النافعة وما يوجب الطمانينة وقرة العين ما لا يمكن

(١) صحيح الجامع ١١٧٥ .

وصفه، وهو مع عجزه له من أنواع الإرادات الصالحة، والعلوم النافعة التي يتنعم بها، ما لايمكن وصفة، ولقد عبَّر كثير من المشاهير، سواء الأغنياء أو الفنانين ممن ابتعدوا عن الله، عن ما يلاقونه من الضنك والشدة مع أن الناظر في أحوالهم بادي الرأي يظن أن السعادة لا تفارقهم، ولا تتعداهم إلى غيرهم.

(١٣) الصبر والمصابرة خصوصًا في بداية الأمر:

لا ريب أن للشهوات سلطان على النفوس، وإنها تتمكن في القلوب، فتركها عزيز، والخلاص منها شاق وعسير ولكن...

إعلم أن من إتق الله كفاه، ومن أستعان به أعانه، ومن توكل عليه فهو حسبه، ومن يتق الله يجعل له مخرجًا، والله لن تجد نصيحة أعظم من هذه، وأعلم أنه كلما زادت الرغبة في المحرم، وتاقت النفس إلى فعله، وكثرت الدواعي للوقوع فيه، عظم الأجر في تركه وتضاعفت المجاهدة على الخلاص منه.

وإعلم أن النفس إذا وجدت لذه العبادة، وذاقت طعم الإيمان، وبرد اليقين، واستشعرت روح قرب الله وجميل نظره ولطفه، لم تحن إلى تلك الشهوات، وكل هذا مجرب ومحسوس.

وإلا مالذي يحمل أصحاب الطاعة على مواصلة السير في الطريق؟ ، إنه حب الله وتعظيمه والأنس به.

(١٤) عرض الحال على من يعين:

سواء داعية أو صديق صالح أو معلم صادق، مما يعين على التوبة، والإقبال على الله، حيث الإرشاد إلى الطريق الصحيح، وتوضيح الأمور التي تشكل على التائب. نسأل الله أن يمنَّ علينا بتوبة صادقة ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

لاأريد أن أعود إلى ما قبل التوبة، كيف السبيل؟

وسائل الثبات على التوبة :

(١) الإقبال على القرآن:

هو الوسيلة الأولى للثبات، فهو الكتاب المبين الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. وهو حبل الله المتين، والصراط المستقيم، والنور الهادي إلى الحق إلى الطريق المستقيم، فيه نبأ ما قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبر ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قسمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، ومن تكلم به صدق، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه فقد هدي إلى صراط مستقيم.

لماذا القرآن مصدر للثبات ؟!

لأنه يزرع الإيمان في القلب، ويزكي النفس بالصلة بالله، لأن تلك الآيات بردًا وسلامًا على قلب المؤمن، فلا تعصف به رياح الفتنة، ويطمئن قلبه بذكر الله، بالقرآن يطمئن قلب المؤمن كما قال الإمام جعفر الصادق: عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[١]، فإني سمعت الله بعدها يقول: ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾[٢]، وعجبت لمن اغتمّ ولم يفزع إلى قول الله -عز وجل- : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٣]، فإني سمعت الله بعدها يقول : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤]، وعجبت لمن مُكر به ولم يفزع إلى

(١) سورة آل عمران آية ١٧٣ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٧٤ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٨٧ .
(٤) سورة الأنبياء آية ٨٨ .

قول الله تعالى : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[١]،فإني سمعت الله بعدها يقول : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾[٢]،وعجبيت لمن طلب زينة الدنيا ولم يقل: ﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾[٣]، فإني سمعت الله بعدها يقول : ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾[٤]، لماذا القرآن مصدر للثبات؟ ، ولأنه يزود المسلم بتصورات صحيحة، وقيم صحيحة، يحكم بها على الأمور فلا يضطرب حكمه، ولا تتناقض أقواله، لماذا القرآن مصدر للثبات؟، ولأنه يرد على الشبهات التي يثرها أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين، كالأمثلة الحية التي عاشها الصحابة والرسول ﷺ .

ما هو أثر قول الله عز وجل ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾[٥] في نفوس المؤمنين لما قال المشركون أن رب محمد قلاه؟! .

ما هو أثر قول الله ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾[٦] في نفوس المؤمنين لما ادعى المشركون أن محمد يعلمه بشر، وأنه يأخذ القرآن على يد نجار رومي بمكة ؟! .

ما هو أثر قول الله عز وجل ﴿ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾[٧]. في نفوس المؤمنين لما قال المنافقين ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ﴾[٨] ؟! أليس تثبيت على تثبيت، وربطا على قلوب المؤمنين؟ وفي غزوة الحديبية وعد الله المؤمنين في رجوعهم منها غنائم كثيرة يأخذونها، وأنه سيعجلها لهم، وأنهم سينطلقون إليها

(١) سورة غافر آية ٤٤ .
(٢) سورة غافر آية ٤٤ .
(٣) سورة الكهف آية ٣٩ .
(٤) سورة الكهف آية ٤٠ .
(٥) سورة الضحى آية ٣ .
(٦) سورة النحل آية ١٠٣ .
(٧) سورة التوبة آية ٤٩ .
(٨) سورة التوبة آية ٤٩ .

دون غيرهم، وأن المنافقين سيطلبون مرافقتهم، وأن المسلمين سيقولون لن تتبعونا، وأنهم سيصرّون يريدون أن يبدلوا كلام الله، وأنهم سيقولون للمؤمنين بل تحسدوننا، وأن الله أجابهم بقوله ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[1] انظر .. ثم يحدث هذا كله أمام المؤمنين، مرحلة بمرحلة، وخطوة بخطوة، وكلمة بكلمة!!، والآيات في سورة الفتح ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ ﴾[2]، ويقول ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[3].

من هنا نستطيع أن ندرك الفرق بين الذين ربطوا حياتهم بالقرآن، وأقبلوا عليه تلاوة وحفظًا وتفسيرًا وتدبرًا، منه ينطلقون، وإليه يرجعون، وبين من جعلوا كلام البشر جُلَّ همهم وشغلهم الشاغل.. فياليت الذين يطلبون العلم يجعلون للقرآن تفسيرًا وحفظًا نصيبًا كبيرًا في طلبهم.

(٢) إلتزام شرع الله والعمل الصالح :

قال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[4]. قال قتادة في تفسير الآية : في الحياة الدنيا يثبتهم الله بالخير والعمل الصالح، وفي الآخرة في القبر.

قال الله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾[5] أي على الحق ، وهذا بيّن وإلا هل تتوقع ثباتًا للفسادين القاعدين عن الأعمال الصالحة إذا أطلّت الفتنة برأسها وإدلهمت الخطوب؟ ، لكن الذين أمنوا يهديهم ربهم بإيمانهم

(١) سورة الفتح آية ١٥.
(٢) سورة الفتح آية ٢٠ .
(٣) سورة الفتح آية ١٥.
(٤) سورة ابراهيم آية ٢٧.
(٥) سورة النساء ٦٦ .

صراطًا مستقيمًا، لذلك كان ﷺ يثابر على الأعمال الصالحة، وكان أحب الأعمال إليه أدومه وإن قل، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا عملت عملًا ألزمته، وكان ﷺ يقول: " مَنْ ثَابَرَ عَلَى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً مِنَ السُّنَّةِ ، بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ " [١]، وهي السُّنن الرواتب وحديث: " لَا يَزَالُ عَبْدِيْ....." والأحاديث كثيرة .

(٣) تدبر قصص الأنبياء :

ودراستها للتأسي بها، والدليل قول الله ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [٢] ، فما نزلت للتسلي والفكاهة وإنما لتعرض أمرًا عظيمًا ، وهو تثبيت فؤاد النَّبي ﷺ والذين أمنوا معه ومن بعده إلى يوم القيامة.

مثلًا: أقرأ قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [٣] ، قال ابن عباس كان آخر كلام إبراهيم عليه السلام " حسبي الله ونعم الوكيل " حين أُلقي في النار، ألا تشعر بمعنى من معان الثبات واليقين يدخل في نفسك أمام الطغيان والعذاب وأنت تتأمل القصة . قال الخليل : "حسبي الله ونِعْم الوكيل " فصارت له النار بردًا وسلامًا .

وقول الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [٤] ، معنى للثبات واليقين بوعد الله في لحظات الشدة.

لما ثبت موسى- عليه السلام - والقلة المؤمنة انفلق له البحر ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ

---

(١) صححه الألباني .
(٢) سورة هود آية ١٢٠ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٦٨: ٧٠ .
(٤) سورة الشعراء آية ٦١- ٦٢ .

﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ ﴾ [١] وقول الله في قصة فرعون مع السحرة ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [٢]، انظر إلى ثبات القلة المؤمنة الذي لا يشوبه أدنى تراجع ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [٣]. لما ثبت هؤلاء القلة كانوا في أول النهار سحرة فجرة، وفي آخر النهار شهداء برره، لهم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقول الله: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [٤].

في غزوة الأحزاب، إجتمع على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه حوالي ١٠ آلاف من طوائف متعددة، وحصل في هذه الغزوة أزمة عظيمة للرسول وأصحابه وصفها الله بقوله ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ [٥]، فانقسم الناس قسمين، الأول قال الله عنهم ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [٦] عندهم نقص في اليقين وعدم الثبات، قالوا كيف يقول محمد أنه سيفتح كسرى وقيصر وصنعاء وهو الآن محاصر من هؤلاء الناس؟! والثاني: المؤمنون قال الله عنهم ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [٧].

(١) سورة الشعراء آية ٦٣.
(٢) سورة طه آية ٧١.
(٣) سورة طه آية ٧٢.
(٤) سورة الأحزاب آية ٢٢.
(٥) سورة الأحزاب آية ١٠.
(٦) سورة الأحزاب آية ١٢.
(٧) سورة الأحزاب آية ٢٢.

انظر الفرق هؤلاء لما رأوا الأحزاب ورأوا هذه الشدة علموا أنه سيعقبها نصر وفرج، وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فسيكون نصر وسنفتح ممالك قيصر وكسرى واليمن، وهذا ما كان، فهو ثبات وغاية اليقين أن يكون الإنسان عند الشدائد وعن الكروب ثابتًا مؤمنًا، عكس من كان توكله ضعيف عند المصائب والكروب، ربما ينقلب على وجهه يخسر الدنيا والآخرة .

وقصة أصحاب الأخدود، ومؤمن آل فرعون وغيرها....

(٤) الدعاء:

في صحيح الأحاديث القدسية: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **"يَتَنَزَّلُ رَبّنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُل لَيْلَة إِلَى السَّمَاء الدُّنْيَا حِيْنَ يَبْقَى ثُلُث اللَّيْل الآخر يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيْبُ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيْه؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُ فَأَغْفِرُ لَهُ ؟ "** (١).

إسأل الله في دعائك الثبات **" اللَّهُمَّ يَامُقَلِّبُ القُلُوب ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِيْنك "**، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾(٢)، وأكثر سؤاله تعالى أن يصلح قلبك ويهديك وزريتك، فإن الدعاء باب عظيم من أبواب إصلاح القلب، يقول ابن القيم تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم في سورة الفاتحة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ (٣) لابد أن تستحضر أن تستعين بالله في توبة نصوح وكان ﷺ يكثر سؤال الله التوبة وصلاح قلبه وثباته على الحق والهدى..

(٥) ذكر الله :

ذكر الله من أعظم أسباب الثبات. وقد جعله الله وسيلة للثبات في الجهاد، فما بالك في ماهو أخف منه قال الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ

(١)أخرجه البخاري ١١٤٥ .
(٢) آل عمران آية ٨ .
(٣) سورة الفاتحة آية ٥.

وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [١] ، واستعان به يوسف في الثبات أمام فتنة المرأة ذات المنصب والجمال حين دعته لنفسها، قال معاذ الله فكسرت جنود شهوته. فهو من أعظم أسباب الخروج من الظلمات إلى النور، وحصول الفضل والرحمه من رب العالمين، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [٢] ، وقال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [٣] فبذكره تعالى تطمئن القلوب من خوفها، فتسكن إلى موعود ربها، مع الثقة به، وحُسن التوكل عليه، وصدق اللجوء إليه، وتطمئن من حزنها، فتجد الأمن من كل غم وهم وحزن، فتعيش راضية مرضية لأنها بربها ومولاها راضية.

وتطمئن من الشتات، فيجتمع شملها، ويتحد توجهها، وتنجو من شتات أمرها، وتطمئن من كيد شيطانها، وغلبة هواها، وتحرش أعدائها، وكيد خصومها، فليس للقلب دواء أنفع من ذكر الله، فمهما حصل القلب على مطلوبة ورغباته بدون ذكر الله، فإن مصيره القلق والخوف والغم والهم والحزن والكدر والإضطراب.

أبى الله أن يؤمِّن من عصاه، وأن يؤنس من خالفه وإتبع هواه، وكيف يطمئن من بينه وبين خالقه وحشة و قطيعة، وكيف يأنس من نسي مولاه، وأعرض عن كتابه، وأهمل أوامره، وتعدى حدوده .

إن طمأنينة القلب هي السعادة التي تسعى لها البشرية ، وهي الحياة الطيبة التي يبحث عنها الجميع، فمنهم من خطبها عن طريق المال فجمع وأوعى، وحصل

---

(١)سورة الأنفال آية ٤٥ .
(٢)سورة الأحزاب آية ٤٣.
(٣)سورة الرعد آية ٢٨.

وكنز، فإذا المال بلا إيمان شقاء، ومنهم من طلب السعادة عن طريق المنصب، فصب من أجله دمعه وعرقه، فلما تولاه بلا إيمان كان فيه حتفه وهلاكه وخيبته، ومنهم من طلبها عن طريق اللهو من غناء وشعر وهواية، فما حصل عليها ولا نالها، لأنه عزلها عن عبودية ربه عز وجل.

فيا من تكاتفت سحب همومه أذكر الله لتحيا حياة طيبة، وتسعد سعادة أبدية..

ويا من أحاط به حزنه وأقلقه همه أذكر الله لتأنس..

ويا من طوقه كربه وزلزله خطبه أذكر الله لتأمن..

ويا من تشتت قلبه وذهب لبه أذكر الله لتهدأ..

ذكر الله دواء وشفاء وهناء، وذكر غيره داء ووباء وشقاء. ويكفي الذكر فضلًا أن الله يذكر من ذكره، ويكفي الذكر شرفًا أنه العلم الوحيد الذي يبقى مع أهل الجنة، ويكفي الذكر أجرًا أنه أفضل عمل.

والذكر سعادة ولكن المعرض مخذول، والناسي خائب، والمضجع خاسر.

وفي حديث أنس ﷺ " **مَثَلُ الَّذِي يَذْكُر رَبَّهُ وَالَّذِى لَا يَذْكُر رَبَّهُ كَمَثَل الحَي وَالمَيت**" (١). والقلب إذا خلا من ذكر الله قسا وأظلم قال الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

قال ابن القيم -رحمه الله- : لكل شيء جلاء، وجلاء القلوب ذكر الله تعالى ، قال رجل للحسن البصرى: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، فقال أبو سعيد -رحمه الله- : أذبه بالذكر فما أذيبت قسوة القلب بمثل ذكر الله.

وكان عليه الصلاة والسلم يذكر ربه في كل أحيانه... ووصف الله أولو الألباب بقوله: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) سورة الزمر آية ٢٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٩١ .

والذِّكر يكون بتواطئ القلب مع اللسان، فمن الذاكرين من يتبدئ بذكر اللسان، وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه، فتواطأ على الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه ، فينشر في الذكر بقلبه، فإذا قوى استتبع لسانه متوطأ جميعًا. فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه، والثاني ينتقل الذكر من قلبه إلى لسانه، وأفضل الذكر ما كان بالقلب واللسان، لأن هناك ذكر باللسان فقط، وهناك ذكر بالقلب فقط.

وأعظم ما يمكن أن تداوم عليه من الذكر، أذكار الصباح والمساء المأثورة، وأن تستشهد معانيها حال ذكرك.

وبقدر أكثارك من ذكره تعالى، ينبسط خاطرك، ويهدًا قلبك، وتسعد نفسك، ويرتاح ضميرك، لأن في ذكره تعالى معاني التوكل عليه، والثقة به، والاعتماد عليه، والرجوع إليه، وحسن الظن فيه، وإنتظار الفرج منه فهو قريب إذا دُعِي ، سميع إذا نودي، مجيب إذا سُئِلَ .. فزد من ذكر الله توحيدًا وثناءً ومدحًا ودعاءً وسؤالًا واستغفارًا، وسوف تجد بحوله وقوته السعادة والأمن والسرور والنور والحبور ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [1] .

فالمرء حقيق أن يكون له مجالس، يخلو فيها، فيتذكر ذنوبه، فيستغفر الله..

قال سعيد بن جبير : الذكر طاعة الله، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن أكثر التسبيح وتلاوة القرآن..

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية، أي الذكر أنفع للذاكر، التسبيح أم الاستغفار؟

قال : إن كان الثواب نقيًا، فالبخور وماء الورد أنفع، وإن كان الثوب دنسًا، فالصابون والماء الحار أنفع.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٥ .

(٦) التربية الإيمانية العلمية الواعية المتدرجة:

إن التربية الإيمانية العلمية الواعية عامل أساس للثبات.

التربية الإيمانية: التي تحيي القلب والضمير والخوف والرجاء والمحبة، المنافية للجفاف الناتج عن البعد عن القرآن والسُنَّة.

التربية العلمية: القائمة على الدليل الصحيح المنافية للتقليد والإمعية.

التربية الواعية: التي تعرف سبيل المجرمين، وتدرس خطط أعداء الإسلام، وتحيط بالواقع علمًا، وبالأحداث فهمًا، المنافية للإنغلاق.

التربية المتدرجة: التي تسير بالمسلم شيئًا فشيئًا، ترتقي به في مدارج كماله بتخطيط موزون، منافي للقفزات المحطمة.

لكي ندرك أهمية ذلك العنصر نعد إلى سيرة الرسول ﷺ في مكة ، ونسأل ما هو مصدر ثبات صحابة النَّبي ﷺ في مكة أثناء فترة الاضطهاد؟! كيف ثبت بلال وخباب ومصعب وآل ياسر وغيرهم؟! من المستضعفين ومن كبار الصحابة في الشعب؟! هل يمكن أن يكون ثباتهم بغير تربية عميقة، ومن مشكاة النبوة ثقلت شخصياتهم؟!، لابد للمسلم من تربية صحيحة تحميه من الفتن والإبتلاء والأعداء، تربيه تعصمه من الشهوات، فالمنهج التربوي الإسلامي منهج ينبثق من نصوص القرآن والسُنَّة، وعنايته موجهه بالدرجة الأولى إلى تزكيه النفس، وتهذيبها من نزغات الشر والإثم، وتنمية فطرة الخير فيها.

ويمكن التعبير عن عملية تربية النفس بأنها: عملية النهوض بالنفس إلى المستوى الرفيع من التكوين العقدي والسلوكي الشرعي، وقد ربط القرآن العظيم النجاح والفلاح بتزكية النفس بالإيمان والتقوي، وربط الخيبة بتدنيس النفس بالكفر والعصيان قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ

مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾[١].

وللتربية أثر عظيم في تزكية النفس، ولذلك كانت من مهمات الرسول ﷺ تزكية نفوس الناس. قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾[٢] ، والنفس قابلة للتوجيه والتعديل، والخير المركوز فيها قابل للتنمية بالتدريب والتعليم وتكرار المحاولات.

ولكي تنجح عملية التربية للنفس أو لغيرها لابد من أسس:

أولا: أن تتوفر في عملية التربية النية الصالحة، وأن يكون الغاية في التغير الإيجابي مرضاة الله عز وجل، ونيل الثواب الأخروي، فالأعمال تتحدد قيمتها، وتتحقق أثارها المباركة، بحسب ما وقر في القلب من نيات ومقاصد يعلمها الله تعالى الذي لا تحفى عليه خافيه قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[٣] .

ثانيا: مراعاة التدرج في البناء التربوي لأن عملية التربية ليست عملية تحويل فجائي دفعة واحدة ، والرغبة في الإنجاز السريع على خلاف سُنَّة الله تعالى ، في كونه إذ مع قدرته على الإيجاد بقوله كن فيكون ، لكنه تبارك وتعالى اختار لنفسه سُنَّة الإنشاء المتدرج ومن صفات الله تعالى أنه رب العالمين والتربية هي إنشاء متدرج لإبلاغ الشيء إلى مستوى كماله .

ثالثا : إعطاء النفس فرصة للتعود وتصبيرها ومكابدتها، فبين الحق والهوى باب إبتلاء تمحيص، من صدق الله نجا ودخل إلى الحق، ومن ضل هلك ودخل إلى الهوى. قال تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ

(١)سورة الشمس آية ٧:١٠ .
(٢) سورة البقرة آية ١٥١ .
(٣)سورة العنكبوت آية ٦٩ .

يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [١]، وقول النَّبي ﷺ : " إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ " [٢].

تتلخص هذه الخطة التربوية في ممارسة السلوك الإيجابي المزاحم للطبع السلبي، وبتكرار السلوك المزاحم وتنميته يضمر الطبع السلبي، وذلك لأن في الإنسان استعدادًا فطريًا لإيلاف ما يتكرر عليه مرة بعد مرة، من ألف شيئًا أحبه وشعر بالحاجة النفسية إلى ماعودته.

ومما يحكى عن البِشر الحافي أنه سار ومعه رجل في طريق فعطش صاحبه، فقال له نشرب من هذه البئر، فقال بشر أصبر إلى البئر الأخرى، فلما وصلا إليها قال له البئر الأخرى .. فما زال يعلله. ثم ألتفت إليه قائلًا: هكذا تنقطع الدنيا..

وروى الأوزاعي عن التابعي الجليل عبد الله الخزاعي قوله " عالجت لساني عشرين سَنَة قبل أن يستقيم لي ".

روى عن أب المعمر أنه قال " أمر أنا أطلبه منذ عشرين سَنَة لم أقدر عليه ، ولست بتارك طلبه أبدًا، قالوا وما هو يا أبا المعتمر؟ قال (الصمت مما لا يعنيني) ".

ويقول ابن المبارك: أن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوًا، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا على كره، فينبغي لنا أن نكرهها. إذا كان هذا قول ابن المبارك فنحن بلا شك نعيش أشد المعاناة مع نفوسنا، ونلاقي منها معاندة عن قبول الحق، وتحتاج إلى مكابدة من نوع خاص.

وكما ذكرت إحدى الصالحات نصيحتها لبنيها (تعودوا حب الله وطاعته، فإن المتقين ألفوا بالطاعة فاستوحشت، جوارحهم من غيرها، فإن عرض لهم الملعون بمعصية مرت المعصية بهم محتشمة، فهم لها منكرون).

---

(١) سورة الكهف آية ٢٨ .

(٢) رواه ابن حجر في فتح الباري ١/ ١٦١ .

يانفس توبي فإن الوقت قد حان ∴ وأعصي الهوى فإن الهوى مازال فتانا
أمـا تـريـن المـنـايـا كيف تلقطنا ∴ لقطنا وتلحق أخـرانـا بـأولانـا
في كـل يـوم لـنـا مـيـت نشيعه ∴ نـرى بـمـصرعـه أثـار مـوتـانـا
يـا نفس مـالي ولـلأمـوال أتركها ∴ خلفي وأخـرج من دنياي عريانا
أبـعـد أربـعـين قـد قضيتها لعبًا ∴ قد آن أن تقصري قد آن قد آن
مابالـنا نتعامـى عن مصائرنـا ∴ ننسى بغفلتنا مـن ليس ينسانا
نـزداد حرصا وهذا الدهر يزجرنا ∴ كـأن زاجـرنـا بـالحـرص أغـرانـا
أيـن المـلـوك وابـنـاء المـلـوك ومن ∴ كـانـت تخـر لهـم الأذقـان إذعـانـا
صـاحـت بهـم حـادثـات الـدهـر ∴ فانقلبوا مستبدلين من الأوطان أوطانا
خلو مـدائـن كـان العز مفرشها ∴ واستفرشوا حفرا غـبرا وقيعانا
ياراكضا في ميادين الهـوى مرحا ∴ ورافـلا في ثـيـاب ألـغـى نشوانا
مضى الزمان وولى العمر في لعب ∴ يكفيك ما قد مضى قد كان ما كان

رابعًا: تذكر أن التربية للنفس ليس معناها إلغاء طبائع النفس الفطرية. وإنما تعمد إلى استغلالها وتحويلها وتوجيهها وتهذيبها، فالإسلام ما جاء ليحجز الفطرة، وإنما جاء ليقومها ويصحح مسارها.

خامسًا: إيجاد الحافز الذاتي الذي يشكل القوة الداخلية لدى الإنسان، والموجهه لإرادته، والدافعة له، والحافز لدى المؤمن وهو الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، وبقضائه وقدره، وبالتآمل في الجزاء الذي وعد به، فهذا الحافز قوة فوق كل القوى، فمتى بنيت هذه القاعدة الإيمانية في أعماق قلب الإنسان فإنها ستهيمن على فكره وقلبه وعواطفه، بحيث تعمل على ربط إرادته بما يرضى الله تعالى، وتتحكم في أنواع

سلوكه الداخلي والخارجي وفق ما أمر الله تعالى به رغبة ورهبة كما يقول تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[1].

فنهى النفس عن الشر، وتزكيتها لا يتم إلا بالخوف من العظيم الجليل، الرقيب الحسيب، وهذا من أهم روافد البناء التربوي الذاتي الذي يورث الإيمان بالله تعالى بإلوهيته وأسمائه وصفاته، وهو الذي يشعل جذوة الخوف في القلب ونجاحه في وقت الحياة والصحة، ثم هناك الخوف من اللحظة الأخيرة وسوء الخاتمة، وهذا بمثابة المحرك نحو عملية التربية والإصلاح على الدوام، وكذلك الخوف من حدوث العقوبات الربانية العاجلة والآجلة.

ثم إن المؤمن بالله تعالى وبقدرته وحكمته يقابل مقادير الله بالرضا والتسليم، فيصبر ولا يضجر ولا يسخط ولا يحسد لأنه يعلم إنها من تدبير الحكيم العليم الرحيم. وتكوين هذه القاعدة يكون عن طريق إكتساب العلم والتعرف على ما أخبر به من أصول الإيمان وأمور الغيب في كتابه وسُنَّة نبيه محمد ﷺ، وهذا الحافز في مستواه الأعلى يوصل الإنسان إلى مرتبة الإحسان في معظم أعماله، ويجعله من السابقين إلى الخيرات بإذن الله تعالى.

سادسًا: التركيز على عملية التحويل والتصعيد، وتكون بتحويل وغياب النفس إلى جانب من جوانب الخير، ومن ثم توجيهها إلى معالي الأمور، ولما فيه السعادة الخالدة، أو مجد حقيقي ولما فيه كمال ورفعة في الدنيا والآخرة. وهذه القاعدة متعلقة بسابقتها من حيث أنها مرتبطة بالإيمان بالغيب، مثال ذلك من يرى في نفسه طمعًا مفرطًا في متاع الحياة الدنيا وزينتها، فيشتغل بملئ قلبه بالإيمان بالله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، ومعرفة أحواله وما فيه من جنة ونعيم مقيم وأجر عند الله عظيم، ثم التأمل في تفصيلات ذلك النعيم الواردة في صحيح الأخبار، ثم تعمل على توجيه طمعها وتحويله إلى ما عند الله، ثم تجري عمليات تصعيد مالديها من حرص وطمع

(١) سورة النازعات آية ٤٠-٤١.

وحب لمتاع النفس إلى تحصيل ذلك المأمول الأخروي، وبذلك تنفك شيئًا فشيئًا عن التعلق بمطامع الحياة الدنيا طلبًا لما هو أجل وأعلى وأدوم، فعندها تجد نفسك قنوع راضي غير مفرط في الطمع الدينوي، ومن هذا الأصل التربوي ما جاء في قوله الله ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ (١)،والآن بعد معرفة هذه **الأسس كيف أربي نفسي؟!.**

(أ) **شد الرحال إلى تنقية القلوب وإصلاحها:** ومراقبة أخلاق الباطن، إذ سينتج عنه استقامة السلوك الخارجي، كما يقول النَّبي ﷺ : " **أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ** " (٢) .

ولتعلم أن العناية بتقويم السلوك الظاهر فقط يكون كالبناء على غير أساس، وكل بناء على غير أساس عرضة للإنهيار، وإقرأ الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " **إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَا يَنْظُرُ إِلَىٰ أَجْسَامِكُمْ وَلَا إِلَىٰ صُوَرِكُمْ، وَلَكِنَّ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ** " وعلى ذلك فكي يظهر أثر العملية التربوية لابد من تطهير هذه المضغة من كل ما يخالف تعليمات الوحي.

(ب) الحرص على العلم والتعلم: وفهم أمور الدين الواجبة، وما من طريقة من طرق التربية ووسائلها إلا وهي متعلقة تعلق وثيق بالعلم واكتسابه والإنتفاع به، وكذلك فهم القرآن، والتواصل معه قراءة وتدبرًا وعلمًا وعملًا، وأخص هذه العلوم هي العلم بالله تعالى الذي يحقق التوحيد الخالص والإيمان الصحيح.

كما يقول ربنا تبارك وتعالى:﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ (٣).
وهذه أعظم قضية في العالم وأكبر مسألة في الدنيا، وهي أن تعلم وتقر وتعترف أنه لا إله إلا الله، فلا تعبد غيره،ولا توحد سواه، إن الخلق خلقوا ليعلموا أن لا إله إلا

(١)) سورة طه آية ١٣١ .
(٢)رواه البخاري ٥٠ .
(٣) سورة محمد آية ١٩ .

الله، وأن الكتب نزلت لتثبيت لا إله إلا الله، وأن الرسل بعثت لتدعو إلى لا إله إلا الله، فقبل أن تعلم إعلم أنه لا إله إلا الله، وقبل أن تدعو إلى لا إله إلله، وقبل أن تأمر وتنهى صحح لا إله إلا الله.

إن بداية الطريق لمن أراد الحياة الطيبة، والعيش السعيد، والخاتمة الحسَنَة، والخلود في الجنة، لهي هذه الكلمة الرائدة الخالدة بكل ما تحويه من معنى إرادة الله عز وجل يوم فرض على العباد تحقيقها، ولابد لهذه الكلمة من اعتقاد جازم لا يخالطه شك، وحب صادق لا يكدره سخط، وصدق في قولها لا يمازحه كذب، وعمل بمقتضاها لا يناقضه مخالفة، ودعوة إليها لا يصاحبها فتور، وسلامة من كل ما يضادها أو يعارضها من شرك أو رياء أو بدعة ليكون قائلها أسعد الناس بها في الدنيا والآخرة.

ولأن الله صاحب الكمال والجلال والجمال والعظمة فحقه أن نوحده بلا إله إلا الله، ولأننا أهل الذنب والخطيئة والعيب والتقصير فعلينا بالإستغفار. فالتوحيد حق لله لا ينازعه فيه أحد لأنه واحد في ربوبية وأسمائه وصفاته وأفعاله والإستغفار نجاة للعبد الذي غره الشيطان، وخدعته النفس، وغلبه هواه، وأشغلته دنياه، فوقع في المعصية، والآن لك أن تعرف سر الإقتران بين التوحيد والإستغفار وهذا ورد في عدة مواطن في القرآن مثل ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ (١)، ولا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فهذه المعرفة العظمى بالله التي تبوء بك إلى الإستغفار، وهي أعظم العلوم على الإطلاق. علم بالكتاب والسُنَّة الذي يؤدي بك إلى الإذعان لله، والخضوع له، فمنه العز والمجد في الدنيا والآخره.

قال عروة بن الزبير يا بنيَ : تعلموا فأنكم إن تكونوا صغراء قوم، عسى أن تكونوا كبراءهم، وأسوتاه ما أقبح من شيخ جاهل!.

(١) سورة فصلت آية ٦.

فعلى مقدار التدبر والفهم لكتاب الله وسُنَّة نبيه يكون التوفيق والنجاح في تربية النفس وتزكيتها، وقد بينت كيفية الإنتفاع بالقرآن بالتفصيل في صفحات هذا الكتاب، وأسأل الله الإنتفاع من تلك الكلمات.

(جـ) محاسبة النفس وإتهامها مع الإهتمام بآنية المحاسبة، بحيث يحاسب الإنسان نفسه على كل خطأ يقوم به في نفس الوقت، وهذا يحتاج إلى يقظة دائمة، وإنتباه للأخطاء وحركات النفس، وإتهامها قبل إتهام الآخرين، والبحث عن عيوبها قبل البحث عن عيوب الآخرين، والحذر من الوقوع في وهم الكمال الذي يجعلنا لا نلتفت إلى نواقص أنفسنا فتتراكم العيوب، ونحيد عن الطريق . إن المحاسبة بمثابة صراع المؤمن مع نفسه الأمارة بالسوء التي تنسيه الآخرة والإستعداد لها.

قال الحسن البصري -رحمه الله-: يابن آدم إنك لا تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو منك، وحتى تبدأ بعلاج ذلك العيب من نفسك فتصلحه، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيبًا إلا وجدت عيبًا آخر لم تصلحه، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان كذلك.

ومن مواقف المحاسبه المنقولة عن السلف قول أحدهم (ما عرضت قولي على عملي إلا خفت أن أكون مكذبًا) بمثل هذه المحاسبة يستمر العمل ويزداد وتحفظ النفس من الإنحراف عن الجادة.

(د) حدد هدفك، فمن المعلوم أن الله تعالى لم يخلق الحياة الدنيا عبثًا، ولم يوجد الإنسان هملًا، قال الله ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ (١).
فلابد أن تجعل لكل وقت من حياتك عملًا، وأن تجعل لكل عمل هدفًا نافعًا، مع وضع خطة للوصول إليه، بحيث لا يبقي الهدف أفكارًا وأمالًا فقط، وأن تعقد

(١) سورة المؤمنون آية ١١٥ - ١١٦.

العزم على الوصول إليه بلا أدنى تردد.

*قال الحسن البصري -رحمه الله- عن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- : " ما ظننت عمر خطا خطوة إلا وله فيها نية" ومقولة سليمان الفارس ﷺ تؤكد هذا المعنى " إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي ".

وأكرم هدف وأسمى عناية يسعى لها كل مسلم في حياته هو بلوغ مرضاة رب العاليمن، قد يتساءل البعض هل هذا يعني أن تكون الحياة كلها عبادة وجد، لامكان فيها لإعطاء النفس مطالبها من الترويح والإستجمام مثلًا ؟! .

قبل أن أجيب اقرأ كلام قاله أبو الدرداء " إني لأضحك لأجم روحي، وهذا حق للنفس أن تسرح في المباح ليعود لها نشاطها ونشوتها، وتكون أقدر على العبادة والعمل، فإن الجد المتصل و العمل الدائم يورث الملل والسآمة فتذوب النفس، ويخمد أشراقها، ويضعف أداؤها، والعاقل يتلطف بنفسه وبجسمه ليصل إلى مقصوده ويقطع طريق سفره في راحة " .

فالجواب: لا بالطبع، النفس لا تطيق ذلك، ولكن نقول حتى طلبك للترويح في وقته المناسب، وبالكيفية المناسبة من الممكن أن يكون هدفًا مقصودًا أو مشروعًا، وضمن منظومة الأهداف الصغرى الخادمة الموصلة إلى الأهداف الكبري، ولابد عند وضع الأهداف من مراعاة الأولويات والأهم فالمهم، إذ أن بعضنا قد ينشغل بالمباحات، ويستنفذ وقته كله فيها، ويفرط في الواجبات والضروريات والفرائض، فيكون كمن بذل جهده وإستفرغ وسعه في إختيار ألوان منزله وتزيينه، وقصر تقصيرًا كبيرًا في قواعد وأعمدة ذلك المنزل، فآل به الأمر إلى أن إنهدم المنزل على من فيه.

هكذا حياة بعض الناس تجري وراء المظاهر الفارغة، والمجاملات السطحيه التافهة، وخاصة حال النساء إلاّ من رحم الله، وإذا فتشت في حياتهم أو حياتهن

لتبحث فيها عن علم نافع، أو عمل زاك لأعوزك ذلك، وهذا يقودنا إلى الإشارة إلى قضية أخرى مهمة وهي أن الحياة محدودة والوقت لا يتكرر.

ومن قضى أوقاته ومضت حياته في الإشتغال بتوافه الحياة وصغارها، عاش في قاعها، ولم يتسن له الرقي إلى ذراها وقممها. فمن الناس من يقضي أوقاته في اللهو والكسل، ولو قضي هذه الأوقات في عبادة ربه من صلاة وقراءة وذكر وصله وبر وسعى على مسكين، أو مزاولة عمل نافع، أو اكتساب رزق، لكان حاله غير حاله لكنه أضاع وقته ورضي بالدون ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾[1].

وما أصيب العاقل بمثل مصيبة ضياع الوقت، لأن اللحظة التي تمر لن تعود أبدًا، وما فاز من فاز، وسبق من سبق إلا بإدراكه لقيمة الوقت، وكلما تعودت على حفظ أوقاتك وإستغلالها فيما ينفع، دفعك ذلك إلى تنظيم جميع أمور حياتك، والإرتقاء بنفسك إلى معالي الأمور وكبارها، اما أهل البطالة والفوضى فليس في حياتهم أرخص من الأوقات، يقضونها في اللهو والتوافه والكسل، ولا يفكرون في استغلالها، بل يتنادون بقتلها، وما علموا المساكين أنهم يقتلون أنفسهم...

(هـ) **الإكثار من القربات والطاعات:** فعليك أن ترغب في الوصول إلى القمة، وبلوغ الدرجات العالية عند ربك، وذلك بالإكثار من الطاعات، فالأعمال الصالحة تقوّي الإيمان وتزيده، ووالله ما أكرم العبد نفسه بمثل طاعة الله ، وما أهان نفسه بمثل معصية الله .

ومن الأعمال التي لها خاصية في تزكية النفس الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فالصلاة يقول أبو هريرة رضي الله عنه سمع رسول الله يقول " **أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيْهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسا، هَلْ يَبْقَىْ مِنْ دَرَنِهِ؟ قَالُوْا : لَا**

(١) المؤمنون آية ٩٩-١٠٠ .

يَبْقَىٰ مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا. قَالَ فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا" (١).

فوجه التمثيل أن المرء كما يدنس بالأقذار المحسوسة بدنه وثيابه ويطهره الماء الكثير فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أقذار الذنوب حتى لا تبقى له ذنبًا إلا أسقطته.

والصدقة يقول الله فيها ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾(٢)، أي خذ من أموالهم صدقة تطهرهم من الشر، وتزكيهم بالخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول الله ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾(٣).

فأقسم سبحانه أن الإنسان في خسر لولا أن تواصوا فيما بينهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على ذلك.

(و) **حفظ الجوارح**: يعرف علماء السلف الإيمان بإنه تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، فلا يتم الإيمان من غير عمل الجوارح، وبخاصة في الرأس من السمع والبصر واللسان، وصلاح القلب يتعلق بحفظ هذه الجوارح، وفساده أيضًا يتعلق بإهمالها وتضيعها، فأذا أردت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ جوارحك.. حفظ اللسان والسمع والبصر.

فاللسان يعد من أعظم نعم الله على خلقه، وهو عظيم النفع أن استعمل فيما يحب الله من الكلام، عظيم الضرر إن استعمل في ضد ذلك. فالواجب أن نحفظ علينا لساننا إلا عن الخير، كما في قول رسول الله ﷺ **"مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ يَصْمُتُ"** (٤).

---

(١) متفق عليه.
(٢) سورة التوبة آية ١٠٣
(٣) سورة العصر
(٤) رواه البخاري ومسلم.

روى الترمذي: " كُلُّ كَلَامِ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ إِلَّا الْأَمْرَ بِمَعْرُوْفٍ، وَالنَّهْيَ عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرَ اللهِ ".

واعلم أن حفظ اللسان هو ملاك أمر الإنسان كما قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه " أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّه " قَالَ بَلَى يَا رَسُوْلَ اللهِ فَأَخَذَ بِلِسَانِه فَقَالَ (كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا) قَالَ مَعَاذٌ يَا رَسُوْلَ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُوْنَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِه؟ فَقَالَ ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوْهِهِمْ إِلَّا حَصَادُ أَلْسِنَتِهِمْ "(١).

خطر عظيم أن تتهاون في الكلام غافل عن أنه يحصى عليك ما يلتفظ به لسانك قال الله تعالى ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢) وَقَدْ سُئِلَ الرَّسُوْلُ ﷺ عَنْ أَكْثَرَ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ الْأَجْوَفَانِ (الْفَرْجُ وَاللِّسَانُ)(٣)، وحقًا فاللسان لا يكلُّ كما تكل سائر الأعضاء، ثم إن المعاصي التي تأتي بطريق اللسان كثيرة كالغيبة والنميمة، وقول الزور، والسخرية بالمسلمين، والكذب في الحديث، وأعظمه الكذب على الله ورسوله.. وأكثر الذنوب إنتشارًا بيننا الغيبة التي يفسرها النبي ﷺ (ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ) (٤).

ومع ذلك قد نتعرض لأكثر من شخص في المجلس الواحد ونغتابهم، وإذا نُصِح قال : لم أزد عليهم شيء، فكل ما قلت فهو فهيم، وهذا جهل، فهذه الغيبة بعينها. ومن خطورة الغيبة أن من إغتاب فإنه إثم الغيبة لا يقتصر عليه بل يشمل من سمعه فلم ينكر عليه، فيكون شريك له في الغيبة . وَفِي قِصَّةِ مَاعِزٍ أَنَّهُ بَعْدَ مَا رُجِمَ سَمِعَ النَّبِيَّ يَقُوْلُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبَةِ أَلَمْ تَرَ إِلَى هَذَا الَّذِي سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ فَلَمْ تَدَعْهُ نَفْسُهُ حَتَّى رُجِمَ رَجْمَ الْكَلْبِ، ثُمَّ سَارَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى مَرَّ بِجِيْفَةِ حِمَارٍ فَقَالَ : أَيْنَ

(١) رواه الترمذي .
(٢) سورة ق آية ١٨ .
(٣) صحيح الإسناد ولم يخرجاه .
(٤) رواه مسلم.

فُلَانٌ وَفُلَانٌ؟، إِنْزِلَا فَكُلا مِنْ جِيفَةِ هَذَا الْحِمَارِ. قَالَا : غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا رَسُوْلَ الله وَهَلْ يُؤْكَلُ هَذَا؟ ، قَالَ ﷺ : فَمَا نِلْتُمَا مِنْ أَخِيْكُمَا آنِفا أَشَدُّ أَكْلا مِنْهُ ، وَالَّذِي نَفْسُ بِيَدِهِ إِنَّهُ الْآنَ لَفِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ يَنْغَمِسُ فِيْهَا " (١) .

وقد تجتمع مع الغيبة الشتم، قال رسول الله ﷺ " سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوْقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ " (٢) . هذا كله من مظالم العباد التي إن لم يتب منها، فإن التقاضي يوم القيامة يكون بالحسنات كما قال النَّبي ﷺ : " أَتَدْرُوْنَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوْا الْمُفْلِسُ فِيْنَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا دِيْنَارَ، فَقَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَ زَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ، وَهَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ " (٣).

ومن أخطر جنايات اللسان النميمة، وهي نقل الحديث بين الناس على وجهه الإفساد، مما يؤدي إلى إفساد ذات البين، وتفريق القلوب، وزرع العداوات، فكم من كلمة هدمت بيتًا، وكان بعض السلف يبكي بكاء مرير من أجل كلمة يحسب أنها من الزلل الذي لا يليق بمثله، وكانوا رضوان الله عليهم يبتعدون عن كل ما يفسد الجوارح، فإعلم أن لو لم يكن في كثره الكلام إلا أنه قسوة القلب لكان كافيًا .

*عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ " لَا تُكْثِرُوْا الْكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ الله، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ الله قَسْوَةٌ لِلْقَلْبِ، وَإِنْ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ الله الْقَلْبُ الْقَاسِي "(٤).

وصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه " من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه فالنار أولى به " .

---

(١)الأدب المفرد للبخارى.
(٢)متفق عليه .
(٣) الترمذي (٢٤١٨) صححه الألباني .
(٤)رواه الترمذي.

والحمد لله أن الله تجاوز عن خطرات النفس ، كما يقول الحبيب ﷺ : " إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِيْ مَا حَدَّثَتْ بِهَا أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوْا أَوْ يَعْمَلُوَا بِهِ " .

فيا رعاك الله لابد أن يكون من ضمن خطواتك تربيه نفسك حفظ جوارحك، ومنها لسانك، فقد تُحرم بسبب كلمة أو نظرة تحصيل علم أو نيل فائدة أو ضبط آية.

وأيضًا من نعم الله على عباده نعمتا السمع والبصر، قال الله ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[1] ، وهما كغيرهما من النعم التي يبتلى الله بها عباده، هل يشكرون أم يكفرون. قال الله ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾[2] فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غني حميد.

والشاكر موعود بالزيادة، ومن كفر نعم الله فهو يتوعد بالعذاب الشديد كما قال الله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾[3].

واعلم رحمك الله أركان الشكر حتى تكون على بينه من أمرك.

أولًا : الإعتراف بالنعمة .

ثانيًا : نسبتها إلى المنعم المتفضل سبحانه.

ثالثًا : إستعمالها فيما يحب المنعم.

فمن شكر نعمة السمع والبصر إستعمالهما فيما يحب الله تعالى من سماع القرآن، وسماع الذكر، والنظر في آيات الله ، وحفظهما عما حرم الله من النظر والسماع، وإنك

(١) سورة النحل آية ٧٨ .
(٢) سورة الإنسان آية ٢-٣ .
(٢) سورة إبراهيم آية ٧

مسئول عن ذلك كله، قال الله ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [1]، أما البصر فقد أمر الله المؤمنين والمؤمنات بغضه قال الله : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [2].

انظر كيف قدم الله حفظ البصر على حفظ الفرج ، لأن الأول وسيلة للثاني.

ومن فوائد غض البصر مايجعلك حريصًا على غضه، فليس للعبد في دنياه وأخراه أنفع من إمتثال أمر الله، وما سُعِدَ من سعد في الدنيا والآخرة إلا بإمتثال أمر الله، وما شقي من شقي إلا بتضيع أمر الله. وهو يورث القلب محبه الله والأنس به، كما أن إطلاق البصر يوقع الوحشة بين العبد وربه. وهو يُكسب القلب نورًا وإشراقًا، وكلما قوى هذا النور وتم ظهر في العين وفي الوجهه .

ومن أثر هذا النور التميز بين الحق والباطل، والضار والنافع، والعدو والصديق، وهو ما يشير إليه في الآيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [3]

(١)سورة الإسراء آية ٣٦ .
(٢) سورة النور آية ٣٠-٣١ .
(٣)سورة الأنفال آية ٢٩ .

، وهو يورث القلب سرورًا وفرحًا وانشراحًا أعظم من اللذة العاجلة الحاصلة بالنظر، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه في الدنيا والآخرة ، ووالله أن لذة العفة أعظم من لذة الذنب، وهو يورث حياة طيبة، إقرأ حديث عبد الله بن عمر، قال كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ فأقبل علينا رسول الله بوجهه فقال: " يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِيْنَ خَمْسٌ خِصَالٍ أَعُوْذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوْهُنَّ ، مَاظَهَرَتْ الْفَاحِشَةُ فِيْ قَوْمٍ حَتَّىَ اعْلَنُوْا بِهَا إِلَا ابْتُلُوا بِالطَّوَاعِيَنَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِيْ لَمْ تَكُنْ فِيْ أَسْلَافِهِمْ الَّذِيْنَ مَضَوْا، وَلَا نَقَصَ قَوْمٌ مِّنَ الْمِكْيَالَ وَالْمِيْزَانَ إِلَّا ابْتُلُوا بِالسِّنِيْنَ وَشِدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ، وَمَا مَنَعَ قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوْا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ فَلَوْلَا الْبَهَائِمِ لَمْ يُمْطَرُوْا، وَلَا خَفَرَ" نَقَضَ" قَوْمٌ الْعَهْدَ إِلَا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِيْ أَيْدِيَهِمْ، وَمَا لَمْ تَعْمَلْ أَئِمَّتُهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيْ كِتَابِهِ إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"(١) الطواعين مثل السرطان والإيدز.

فهو يسد عن العبد بابا من أبواب العذاب والعناء والقلق، لأنه يقطع الطريق على الشيطان. فالنظر من أخطر الثغرات التي ينفذ منها الشيطان إلى القلب.

فاتق الله وأمتثل وأمتثلي أمر ربك، وغض وغضي بصرك عما حرم الله خاصة من هؤلاء الذين يتيسر الخلطة بهم من الأقارب الغير محارم لك.

فوالله ما هي إلا إفساد العفة والكرامة، وغضب للرب، وسواد للوجه، وليكن لك من الإيمان ما يحول بينك وبين تلك المعاصي التي لا يعلمها إلا الله، فإنه تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ومن النظر المحرم النظر إلى الرجال من خلال التلفاز، فإحذر وإحذري من إطلاق البصر ..

وأما السمع، من السمع المحرم الغناء، وقد وردت نصوص صريحة في تحريمه، والتحذير منه، وبيان آفاته في القرآن والسُّنَّة وكلام التابعين.

---

(١)صحيح ابن ماجة .

قال الله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [١] لهو الحديث هو الغناء كما ورد عن ابن مسعود وعن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم .

فقال عليه الصلاة والسلام "لَيَكُوْنَ مِنَ أُمَّتِيْ أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّوْنَ الْحِرَ وَالْحَرِيْرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ" [٢]، و قال الضحاك " الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب ".

لا تجد أحدًا عُنِيَ بالغناء، وسماع الآله إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى، علمًا وعملًا، وفيه من إعراض إستماع القرآن إلى إستماع الغناء بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن، عدل عن هذا إلى ذاك، وثقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحال على أن يسكت القاري، ويستطيل قراءته ويستزيد المغني ويستقصر وقته ".

ويقول : والذي شاهدناه نحن وغيرنا وعرفناه بالتجارب أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بولاة السوء، والقحط والجدب وهذا ما نلمسه في واقعنا.

*واتفق الأمة الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة مع تحريمه.

*وقال الإمام مالك لما سئل عن الغناء قال " إنما يفعله عندنا الفساق " .

*وقال الإمام أحمد لما سئل عن الغناء، قال الغناء ينبت النفاق في القلب، أي يلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره والعمل به.

فالقرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبدًا إلا كما يجتمع الماء والنار، فإنهما متضادان، فالقرآن ينهى عن الهوى ويأمر بالعفة ومجانبة الشهوات وأسباب والغي، وينهى عن إتباع خطوات الشيطان، والغناءيأمر بضد ذلك ويحسنه ويهيج النفوس إلى الشهوات والغى ويحركها إلى كل قبيح.

(١)سورة لقمان آية ٦ .
(٢)رواه البخاري .

*قال يزيد بن الوليد " يا بني أميه إياكم والغناء، فإنه ينقص الحياء، ويزيد في الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السُّكر ".

فيا أخي هذا كلام الناصحين، والأئمة المتقين، فإحذر أن تكون من قيل فيهم ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١).

واعلم أن تقوى الله ليس بصيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله، أداء ما أفترض الله، فمن رزق بعد ذلك خيرًا فهو خيرًا إلى خير ، ويا من تؤمن بالله واليوم الآخر اتقي الله، وأمتثل لأمر الله، واعلم أن السعادة في تربية وتزكية النفس من الرزائل، والمسارعة إلى أمتثال أوامر الله وتجنب نواهيه.

واعلم أنه كما أن الرزق لا يطلب بمعصية وكذلك السعادة والحياة الطيبة لا تطلب بالأفعال المحرمة، والدليل قلق نفس واكتئاب من أرادوا السعادة فيما يحرم الله. فالسعادة من الله يهبها لمن شاء والسبيل الوحيد لنيلها ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (٢) هذان هما السبيل للسعادة، الإيمان والعمل الصالح.

نعود إلى وسائل تحقيق التربية:

(ز) **الإنغماس في بيئة صالحة.** فالرفقة الصالحة من أبرز تربية النفس لأن من طبيعة الإنسان أن يتأثر بالبيئة التي يخالطها بالإندماج والموافقة والإكتساب لأجل ذلك أمر الله نبيه: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٣).

---

(١) سورة الأعراف آية ٧٩ .
(٢) سورة النحل آية ٩٧ .
(٣) سورة الكهف آية ٢٨ .

وقول النَّبي ﷺ " الْمَرْءِ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ " (١). فأخ لك كلما لقيك ذكرك بحظك من الله، خير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفك دينارًا، فالإخوة عون على الثبات على الطريق حتى الوصول إلى الجنة بإذن الله تعالى .

ليس فقط بل والله لو أننا حققنا في واقعنا أخوة الإيمان كما أمر بها الله سبحانه وتعالى، ورسوله محمد ﷺ لأ نزل الله نصره علينا، ولسُدنا العالم !! ولن تصدق تلك الإخوة إلا إذا كان الولاء الأول لله وحده دون شريك، والحب الأكبر لله دون منازع، ثم المحافظة على مقتضيات ومتطلبات تلك الأخوة.

لذلك كان من واجبات التربية النافعة للنفس، التوجيه والإلزام بمصاحبة الأخيار، والبعد عن مصاحبة السيئين التافهين لأن كل عمل إصلاحي للنفس لا يؤتي أكله ما لم يتم إعتزال صحبة السوء والتواصل مع الصحبة الصالحة.

وآكد ما ينبغي أن تربي نفسك عليه التحرر من التبعيه والتقليد لأهل الباطل ونسعى في تحقيق شعور الإنتماء لهذا الدين والإعتزاز به والسير وفق ما تمليه عقيدة المؤمن من الولاء والبراء محبة وبغضًا وعطاءً ومنعًا .

قال الله : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾(٢) .

فاحذر أخي المسلم، أختي المسلمه أن تكون أمعه إذ الإمعه هو الذي لا رأي له ولا عزم فهو يتابع غيره على رأيه ولا يثبت على شيء، وهو ماسمى بالتقليد الأعمى، وأقر حديث رسول الله ﷺ : " لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ إِمَّعَةً، يَقُوْلُ أَنَا مَعَ النَّاسِ إِنْ إِحْسَنِ النَّاسِ أَحْسَنْتَ، وَإِنْ أَسَاءُوَا أَسَأْتُ، وَلَكِنْ وَطِّنُوْا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوْا، وَإِنْ أَسَاءُوَا أَنْ تَتَجَنَّبُوْا إِسَاءتَهُمْ " (٣).

---

(١) رواه أبو داود والترمذي .
(٢)سورة المائدة آية ٥١
(٣) رواه البخاري ومسلم .

الدعاء هو الوسيلة الأولى لإصلاح النفس وتزكيتها، لأن الأمر كله يعود إلى مشيئة الله تعالى وتدبيره وتيسيره.

قال الله: ﴿ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) إلى جانب أن الدعاء جزء من الذكر الذي يذكر الإنسان بخالقة جل وعلا، واللجوء إليه بضعفه البشري، والاستغاثة على إعدائه الذين بين جوانحه، ومن بينهم النفس الأمارة بالسوء.

ومن دعاء الرسول ﷺ " اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِيَ تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا " (٢).

(٧) الحرص على أن تسلك طريقًا صحيحًا:

والطريق الوحيد هو طريق أهل السُنَّة والجماعة، طريق الفِرَق الناجية فأهل البدع يتحيرون ويضطربون، فإذا أردت المثبات فالزم جماعة السلف الصالح، ولا تحيد عنه، ولا تعش وحيدًا شريدًا ضالًا دون لزوم التمسك بكتاب الله وسُنَّة رسوله.

(٨) الثقة بالطريق:

الثقة بالطريق إحدى وسائل الثبات على التوبة، فكلما ازدات الثقة بالطريق الذي يسلكه المسلم كان ثباته عليه أكبر ولهذا وسائل منها:

إستشعار أن الطريق الذي تسلكه ليس جديدًا، ولا وليد قرنك وزمانك، وإنما هو طريق عتيق قد سار فيه من قبلك الأنبياء والصديقون والعلماء والشهداء والصالحون. إذا استشعرت ذلك زالت غربتك وتبدلت وحشتك انسًا لأنك تشعر أن أولئك أخوة لك في الطريق المستقيم.

الشعور بالإصطفاء قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾(٣) قال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾(٤)، فكما

(١) سورة الأنعام آية ٣٩
(٢) رواه مسلم.
(٣) سورة النمل ٥٩.
(٤) سورة فاطر آية ٣٢

أصطفى الله الأنبياء، فاعلم أن الصالحين لهم نصيب من الإصطفاء بما ورثوه من علوم الأنبياء فإثبت على الطريق.

(٩) ممارسة الدعوة إلى الله:

فالنفس أن لم تتحرك وتنطلق تتعفن، ومن أعظم مجالات الإنطلاق الدعوة إلى الله، فهي وظيفة الرسل ومخلصة النفس من العذاب، فالنفس إن لم تشغلها بالطاعات شغلتك بالمعاصي. فالدعوة على المناهج الصحيح ولو باليسير كما قال النبي ﷺ " **بلِّغوا عَنِّي وَلَوْ آيه**" [١] ، تقطع محاولات الشيطان بالإضلال، (**بلِّغوا**) تكليف و (**عَنِّي**) تشريف و (**وَلَوْ آيه**) تخفيف. بالإضافة إلى أن ما يحدث في نفس الداعية من الشعور بالتحدي تجاه العوائق والمعاندين وأهل الباطل وهو يسير في مشواره الدعوي يرقى إيمانه، ويقوي أركانه . والدعوة بالإضافة إلى الأجر العظيم فهي وسيلة للثبات. والحماية من التراجع والتقهقر لأن الذي يهاجم لا يحتاج للدفاع. واعلم أن أعظم الصدقه الجارية الدعوة إلى الله وتحمل همَّ الدعوة إلى الله.

(١٠) الإلتفاف حول العناصر المثبتة:

إلزم وعش في أكناف العلماء والصالحين والدعاة، وإياك والوحدة فيخطفك الشياطين، فإنما يأكل الذئب من الغنم الشاردة.

(١١) معرفة حقيقة الباطل وعدم الإغترار به:

كما قال الله : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [٢] فيها تسرية عن المؤمنين وتثبيت لهم.

الله تعالى يحذر، لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه، من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما

(١) رواه البخاري .
(٢) سورة آل عمران آية ١٩٦ .

نمد لهم فيما هم فيه إستدراجًا، والتقلب هو قدرة و حركة واتساع طموح وحين تقارن بين طالب الدنيا وطالب الآخرة نرى أن الصفقة تستحق أن تناقشها من نواحيها وهي كما يلي :

لاتقس عمر الدنيا بالنسبة لذاتها، فعمر الدنيا بالنسبة لك هو عمرك فيها، وعمرك فيها محدود، بل هو مظنون، لأن الموت يأتي بلا سن، وعمرك في الآخرة متيقن، وهو إلى الخلود، ونعيمك في الدنيا منوط بقدرتك على تصور النعمة وإمكاناتها، ولكن نعيمك في الآخرة على قدر عظمة ربك .

لذلك قال تعالى عنها أنها متاع الغرور ، فالذين يغترون بما يناله الخارجون عن منهج الله من تقلبهم في البلاد عليهم أن يتذكروا أن كل ذلك إلى زوال وضياع.

(١٢) إستجماع الأخلاق المعنية على الثبات:

وعلى رأسها الصبر، كما في الصحيحن **" مَا أُعْطِيَ أَحَدا عَطَاءً خَيْرٌ أَوْسَعُ مِنْ الْصَّبْرِ "**

ولي وقفة مع تلك الكلمة الجميل محياها، والعزيز نطقها، المر مزاقها، ما نطق بها اللسان إلا إستشعر القلب تبعاتها وهامت الجوارح في طيَّاتها، وتقلبت الأحداث في صفحاتها.

كلمة ثقيلة الحمل خفيفة الأثر.

كم كرهتها في طفولتي. وكم هي الآن سر سعادتي.

أرى أنه من حرم الصبر فقد حرم الخير كله.

إعلم أن: التحلي بالصبر من شيم الأفذاذ الذين يتلقون المكاره برحابة صدر، وبقوة إرادة، وإن لم تصبر فماذا تصنع؟! هل عندك حل غير الصبر ؟! واصبر وما صبرك إلا بالله: أصبر صبر واثق بالفرج، عالم بحسن المصير، طالب، راغب في

تكفر السيئات، أصبر مهما أدلهمت الخطوب، وأظلمت أمامك الدروب، فإن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرًا، ولما كان الصبر نصف الإيمان، وخلقًا فاضلًا من إخلاق النفس المعينة على الثبات على التوبة. وعلى الطريق المستقيم، وقائدًا للنفس إلى طاعة الله صارفًا لها عن معصيته ..

كان ضروريًا أن نبين حقيقته، وفضله، وأنواعه، ومراتبه، وحال الناس مع الصبر، والأمور التي تقدح فيه وتنافيه في وقت كثرت فيه المصائب، وعمت الفتن، وزادت الشبهات، وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر، وصارت حالة الناس إلى الصبر لاتقل عن حاجتهم إلى الطعام والشراب، نسأل الله العلي القدير أن يرزقنا الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر على قضاءه وقدره إنه ولي ذلك والقادر عليه.

حقيقة الصبر هي حبس النفس عن الجزع، واللسان عن الشكوى، والجوارح عن لطم الخدود، وشق الثياب، وقيل هو تجرع المرارة من غير تعبس، وهو قوي النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها. واعلم أن لله عليك عبودية في عافيتك وفي بلائك، فعليك أن تحسن صحبة العافية بالشكر، وأن تحسن صحبة البلاء بالصبر، والصبر لنفسك بمثابة الزمام لها، فهو الذي يقودها في سيرها إلى الجنة أو النار، فإن لم يكن للمطية زمام شردت في كل مكان، فرحم الله إمرءٍ جعل لنفسه زمام، فقادها بزمامها إلى طاعة الله، وصرفها عن معصية الله، فإن الصبر من محارم الله أيسر من الصبر على عذابه. فإن جعلت قوة إقدامك مصروفة إلى ما ينفعك، وقوة إحجامك إمساكًا عما يغرك، فقد حققت الصبر.

وللصبر فضائل كثيرة عظيمة منها: الله يضاعف أجر الصابرين على غيرهم ويوفيهم أجرهم بغير حساب، فكل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر قال تعالى : ﴿إِنَّمَا

يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

والصابرون في معيه الله، فهو معهم بهدايته ونصره وفتحه، يقول الله -عز وجل: ﴿ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[2].

قال أحد السلف فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من الله المعية.

الصابرون يحبهم الله والدليل قول الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3] وفي هذا أعظم ترغيب للراغبين.

والصبر خير لأهله كما يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[4] وقد جمع الله للصابرين أمور ثلاثة لم يجمعها لغيرهم ألا وهي الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، والدليل قول الله ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[5]. حقًا لما لا أصبر ! ثلاث خصال كل خصله منها خير من الدنيا وما فيها، وقد علق الفلاح في الدنيا والآخرة بالصبر فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[6].

وحالك في هذه الدنيا بين ثلاث أحوال، بين أمر ونهي وقضاء مقدور عليك. وأنت لا تنفك عن هذه الثلاثة مادمت مكلفًا ، وتلك هي الثلاث التي أوصى بها لقمان ابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ

---

(١)سورة الزمر آية ١٠
(٢)سورة الأنفال آية ٤٦
(٣)سورة آل عمران آية ١٤٦
(٤) سورة النحل آية ١٢٦
(٥)سورة البقرة آية ١٥٥-١٥٧ .
(٦)سورة آل عمران آية ٢٠٠ .

أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾[١].

هذه هي أنواع الصبر الثلاث:

صبر على طاعة الله:

فقد جلبت النفس على إيثار الراحة، ومحبة النظر، وعدم الجوع، والشح ..فكره الكثير الصلاة لما فيها من نشاط، وكره الصيام لما فيه من مخالفة للجبله، وكره الصدقة لما فيها من إنفاق يضاد الشح، وعلى هذا فقس ، فالصبر على الطاعات صبر على الشدائد، وأنت في حاجة إلى الصبر على طاعته قبل الشروع في الطاعة، وذلك بتصحيح النية والإخلاص، وعقد العزم على الوفاء بالمأمور به و نحوها، وتجنب دواعي الرياء والسمعة، ولهذا قدم الله عز وجل الصبر على العمل ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[٢].

وصبر حال العمل (الطاعة) كي لا تغفل عن مطالعة الله وفضله ومنه وتوفيقه لهذه الطاعة، ولا يدخلك العجب، وهي شرك النفس، وكي لا تتكاسل عن تحقيق آدابه وسُنَّته وأركانه مثال الصلاة إذا تواجد الصبر اثناء أدائها صلحت وخشعت وإطمأنت، ولكيّ تصبر على إصطحاب النية، وحضور القلب بين يدي المعبود، وصبر بعد الفراغ من العمل (الطاعة)، وذلك الصبر عن إفشاءه والتظاهر به للرياء والسمعة، والصبر عن الإتيان بما يبطل عملك، والصبر في مجاهدة الشيطان أن تعجب بعملك، وتنتظر محمدة الناس، فتقع في شرك النفس، وشرك الأخرين من تلك الأمور التي تنافي الإخلاص ومؤداها بطلان العمل. كما يقول ربنا تبارك وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾[٣].

---

(١)سورة لقمان آية ١٧ .
(٢)سورة هود آية ١١ .
(٣) سورة البقرة آية ٢٦٤ .

فالطاعة في حاجة إلى مجاهدة وصبر، سواء قبل الشروع فيها أو أثنائها أو بعدها، لذلك قال الرسول ﷺ : " حَفَّتْ الْجَنَّةِ بِالْمَكَارِهِ" (١)، أي بالأمور التي تشق على النفوس، وتحتاج إلى الصبر.

صبر عن معصية الله:

وهو حبس النفس عن متابعة الشهوات، وعن الوقوع فيما حرم الله، وهو أعظم ما يعين على ترك المألوف، ومفارقة كل ما يساعد على المعاصي، وقطع العادات، فالعادة طبيعة خاصة إذا أنضمت إلى الشهوة تظاهر جندان من جند الشيطان على جند الله، فلا يقوى باعث الدين على قهرها إلا بالصبر والمجاهدة.

الصبر على البلاء:

قضاء الله وقدره ، ويكون بحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب، والتضرع إلى الله للخلاص وكان دعاء الحسن البصري عندما أراد الحجاج جلده: ياوليِّ نعمتي، وملاذي عند كربتي، إجعل نقمته بردًا وسلامًا عليَّ كما جعلت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، فأكرمه أشد الكرم، فصبرك عن حدوث البلاء إعتراف منك لله تعالى بما أصاب منه وإحتسابه عنده، ورجاء ثوابه، وعن أم مسلمة قالت قال رسول الله ﷺ "إِذَا أَصَابَ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَقُلْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِيْ مُصِيْبَتِيْ، وَأَخْلِفْ لِيَ خَيْرٌ مِّنْهَا"(٢)، فلما حضر أبو سلمة الوفاة قال : اللهم أخلفني في أهلي خيرًا مني فقُبض، فقالت أم سلمه (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ اللَّهُمَّ اجِرْنِي فِيْ مُصِيْبَتِيَ وَاخْلُفْ لِيَ خَيْرًا مِنْهَا) فانظر عاقبة الصبر، والاسترجاع ومتابعة هدي محمد ﷺ، والرضا عن الله، إلى ما آلت إليه ونالت الزواج من أكرم الخلق وسيد ولد آدم ﷺ .

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه مسلم .

ماهي مراتب الصبر؟ :

صبر بالله وصبر لله وصبر مع الله؟ :

فالصبر بالله أن نستعين بالله في الصبر، وأن صبرك بربك لا بنفسك كما قال ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [1]، أي إن لم يصبرك الله من عنده لم تصبر بدافع من عندك، ليس عندك دوافع تجعلك تصبر.

والصبر لله أن يكون الباعث والدافع لك على الصبر موجود عندك، وهو محبة الله تعالى وإرادة وجهه والتقرب إليه.

والصبر مع الله هو دورانك مع مراد الله منك ومع أحكامه، صابرًا نفسك معها، سائرًا بسيرها، متوجهًا مع أقدار الله حيث شاء، ونزلت معها حيث نزلت، وجعلت نفسك وقفًا لله على أوامر الله، وهذا أشد أنواع الصبر وأصعبها يقين.

وحال الناس مع الصبر تختلف، فمنهم ما يكون قوة صبره على فعل الطاعات أقوى من قوة صبره عن البعد من المحرمات، فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن دواعي الهوى وارتكاب ما نهى الله عنه، مثال يصبر على الصيام والقيام ولا يصبر على نظرة محرمة من فضائيات وغيره. ومنهم من صبره على المعاصي أقوى من قوة صبره على مشقة الطاعات ، مثال أن يصبر على نظرة محرمة وصورة عارية ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا هذا ، نسأل الله العفو والعافية.

وهناك أمور تنافي الصبر وتقدح فيه:

الشكوى إلى المخلوق: إذا شكوت ربك إلى المخلوق الذي هو مثلك فقد شكوت الذي يرحم إلى الذي لا يرحم ، وهذا من عدم المعرفة بالله، فالله رحيم لطيف يعافي وبيده الضر والنفع، ولا ينافي الصبر الشكوى إلى الله، فقد شكا يعقوب عليه السلام إلى ربه

(١) سورة النحل آية ١٢٧ .

مع أنه وعد بالصبر فقال ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[١]. ولا ينافي الصبر إخبار المخلوق بحاله ، كإخبار المريض الطبيب بحاله أو إخبار المظلوم لمن ينتصر له إذا كان ذلك للإستعانة بإرشاده أو معاونته على زوال الضر ، ينافي الصبر الهلع والجزع عند المصيبة، وليس الجزع أن تدمع العين، ويحزن القلب، لكن الجزع القول السيء والظن السيء. قال أحد السلف مات ابن لي غالي فقلت لأمه إتقي الله، واحتسبي عند الله وإصبري ، فقالت مصيبتي به أعظم من أن أفسدها بالجزع، فالله درها ... .

ينافى الصبر إظهار المصيبة والتحدث بها، فمن البر كتمان المصيبة والأمراض والصدقة، وقد قيل كتمان المصائب رأس الصبر.

ينافي الصبر شق الثياب، ولطم الخدود، وخمس الوجه، ونتف الشعر، والضرب بإحدى اليدين على الأخرى، والدعاء بالويل ورفع الصوت عند المصيبة فالنبي برئ ممن يفعل ذلك.

ولا ينافى الصبر البكاء والحزن من غير صوت، ولا كلام محرم قال الله عن يعقوب ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾[٢]، أي على الحزن فلم يقل إلا خيرًا.

كلمات مضيئة :

*مرض أبو بكر ﷺ فعادوه. وقالوا : ألا ندعو لك طبيب؟ ، فقال: قد رآني الطبيب، قالوا :فأي شيء قال لك؟، قال : إني فعال لما أريد.

*قال عمر بن الخطاب ﷺ : وجدنا خير عيشنا بالصبر، وقال : أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريمًا.

(١)سورة يوسف آية ٨٦ .
(٢)سورة يوسف آية ٨٤ .

*وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِعَ الرأس بار الجسم ثم رفع صوته فقال: إنه لا إيمان لمن لا صبر له، وقال الصبر مطيه لاتكبو.

*وقال الحسن الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده.

*وقال عمر بن عبد العزيز " ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه، فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرًا مما إنتزعه .

*وقال سليمان بن القاسم كل عمل يعرف ثوابه إلا الصبر قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[1] . قال كالماء المنهمر.

*عن أبي صالح قال دخلت على سعيد بن جبير حين جيء به إلى الحجاج، فبكى رجل فقال سعيد ما يبكيك؟! قال لما أصابك. قال فلا تبك كان في علم الله أن يكون هذا، وتلا ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.[2]

* قال الذهبي: يروى أن الحجاج رئي في النوم، فقيل ما فعل الله بك؟ قال: قتلني بكل قتيل قتلة ، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة . نعم أليس الله بكاف عبده .

(١٣) وصية صديق صالح:

عندما يتعرض المسلم لفتنه ويبتليه الله ليمحصه يكون من عوامل الثبات أن يقيض له صديق صالح يثبته فتكون كلمات ينتفع بها المسلم، ويسدد الخطى، فتكون هذه الكلمات مشحونه بذكر الله، ولقائه وجنته وناره.

---

(١)سورة الزمر آية ١٠

(٢)سورة الحديد آية ٢٢ .

(١٤) التأمل في نعيم الجنة وعذاب النار وتذكر الموت:

* يقول أحد السلف: إن كنت لألقى الرجل من إخواني فأكون بلقياه عاملًا أيامًا.

* يقول آخر: كنت أنظر إلى أخ من إخواني الصالحين، فأعمل على رؤيته شهرًا.

الجنة بلاد الأفراح، وسلوة الأحزان، ومحطة رحال المؤمنين، فالنفس مفطورة على عدم التضحية والعمل والثبات إلا بمقابل يهوِّن الصعاب، ويزلل لها ما في الطريق من عقبات و مشاق. فإذا علمت الأجر تهون عليك مشقة العمل وأنت تسير، وإذا لم تثبت فستفوت جنة عرضها كعرض السموات والأرض، فيها ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ثم إن النفس تحتاج إلى من يرفعها من الطين الأرضي إلى العالم العلوي، ويجذبها إليه، كان النَّبي ﷺ يستخدم ذكْر الجنة في تثبيت الصحابة، وكذلك كان يقول للأنصار **"إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِيَ أَثَرَهِ (أَيُّ يُفَضِّلُ الرُّؤَسَاءِ أَنْفُسِهِمْ دُوْنِ الشَّعْبِ) فَاصْبِرُوَا حَتَّىَ تَلْقَوْنِي عَلَىَ الْحَوْضِ"**[(١)] .

كذلك اذكر حال الفريقين في القبر والحشر والحساب والميزان والصراط وسائر منازل الآخر. نعم لابد من التأمل في أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار وإقرأ عن النار وأهوالها وأنكالها وعن الجنة وأصناف نعيمها ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أنقل لك أحوال الفريقين وصفات الجنة والنار لابد لك من أن تتدبر الجنة ونعيمها، وجهنم وأهوالها وأنكالها [(٢)].

قال الغزالي -رحمه الله- : " يأيها الغافل عن نفسه، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الإنقضاء والزوال ، دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه، وأصرف الفكر إلى موردك، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع، إذ قيل

(١) رواه البخاري .

(١) انظر: « إحياء علوم الدين للغزالي» و « الترغيب والترهيب » و « الزهد للمنذري » و « الزهد والرقائق » لابن المبارك، و « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » لابن القيم، « والبداية والنهاية » لابن كثير.

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾[1]. فأنت من الورود على يقين، ومن النجاة في شك، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد، فعساك تستعد للنجاة منه.

وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأطلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب، عند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البراء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلًا: أين فلان ابن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل؟ المضيع عمره في سوء العمل؟ فيبادرنه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قعر الجحيم، ويقولونه له: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾[2].

فأُسكنوا دار ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك، يخلد فيه الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك، وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي، وأسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من اكنافها، ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يامالك! قد حق علينا الوعيد، يا مالك! قد اثقلنا الحديد، يا مالك! قد نضجت منا الجلود، يا مالك! اخرجنا منها فإنَّا لا نعود، فتقول الزبانية: هيهات! لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسؤوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودن، فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرَّطوا في جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم الندم، ولايغنيهم الأسف بل يكبون

(١)سورة مريم آية ٧١ - ٧٢.
(٢)سورة الدخان آية ٤٩.

على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم والنار من تتحتهم، والنار عن إيمانهم، والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار، طعامهم نار، وشرابهم ولباسهم نار، ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران، وسرابيل القطران وضرب المقامع، وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقهم، ويتحطمون في دركاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم، ويصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم، فيتفجر الصديد من أفواههم، وتتقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحقادهم، ويسقط من الوجنات لحومها .. وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون[1] .

عمق جهنم وشدة حرها:

عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال " **إِنَّ الصَّخْرَةَ الْعَظِيْمَةَ لَتُلْقَي مِنْ شَفِيْرِ جَهَنَّمَ فَتَهْوَى فِيْهَا سَبْعِيْنَ عَاما وَمَا تُفْضِيَ إِلَى قَرَّارَاهَا**"[2] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : **كُنَّا عِنْدَ رَسُوْلِ الله ﷺ فَسَمِعْنَا وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " أَتَدْرُوْنَ مَا هٰذَا ؟ " فَقُلْنَا : اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ، قَالَ " هَذَا حَجَرٌ أَرْسَلَهُ اللّٰهُ فِي جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِيْنَ خَرِيْفا فَالآنَ حِيْنَ انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا**"[3]، و " الوجبة " هي: صوت سقوط الشيء من مكان عال.

ولجهنم سبعة أبواب، قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾[4] ، وقيل : المراد بالأبواب: الطباق، طبق فوق طبق.

---

(١) « إحياء علوم الدين » (٢٩٨٦ - ٢٩٨٨).
(٢) رواه مسلم (٢٩٦٧)، وهذا لفظ الترمذي (٢٥٧٥).
(٣) رواه مسلم (٢٨٤٤).
(٤) سورة الحجر آية ٤٣-٤٤ .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (١). قال : " هي حجارة من كبريت، خلقها الله - يوم خلق السموات والأرض - وفي السماء الدنيا، يُعِدّها للكافرين ".

وفي " الصحيحين " من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : " **لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَتَقُولُ قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ**" (٢)

وعن ابن مسعود ﷺ في قوله : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٣) . قال " أما إني لست أقول : كالشجرة، ولكن : كالحصون والمدائن ".

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ " **نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ ، قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ الله ، قَالَ: فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**"(٤) .

طعام أهل النار :

قال الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾(٥)، الضريع : نوع من الشوك لا تأكله الدواب لخبائته.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾(٦).

عن ابن عباس ﷺ قال : في قوله تعالى : ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ ﴾ قال: شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج. وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤، سورة التحريم آية ٦ .
(٢)رواه البخاري (٤٨٤٨)، ومسلم (٢٨٤٨).
(٣) سورة المرسلات آية ٣٢ .
(٤)رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣)
(٥) سورة الغاشية آية ٦-٧ .
(٦)سورة المزمل آية ١٢-١٣ .

لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1].

وصف الله عز وجل شجرة الزقوم فقال: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾[2]. والشوب: هو الخلط والمزج، أي: يخلط الزقوم المتناهي في القذارة والمرارة، والحميم المتناهي في اللهب والحرارة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النَّبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[3]. فقال رسول الله ﷺ **" لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الزَّقُّوْمِ قُطِرَتْ فِيْ دَارِ الدُّنْيَا، لَأَفْسَدَتْ عَلَىَ أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُوْنُ طَعَامَهُ؟"**[4].

وقال تعالى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[5]. قال ابن عباس: " الغلسين الدم والماء والصديد الذي يسيل من لحومهم".

والتوفيق بين ما هاهنا وبين قوله: ﴿ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ ﴾ وقوله: ﴿ مِّن زَقُّومٍ ﴾ وقوله: ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة ١٧٤]، أنه يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك، أن العذاب أنواع والمعذبين طبقات، فمنهم أكلة الضريع، ومنهم أكلة الزقوم، ومنهم أكلة النار، لكل منهم جزء مقسوم.

شراب أهل النار:

قال الله تعالى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ

---

(١) سورة الواقعة آية ٥١-٥٦.
(٢) سورة الصافات آية ٦٦-٦٧.
(٣) سورة آل عمران آية ١٠٢.
(٤) صحيح: رواه الترمذي (٢٥٨٥) وقال « هذا حديث حسن صحيح»، وأحمد (٢٧٣٠)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٢٦)، وصححه الأرناؤوط في «تحقيق الأصول».
(٥) سورة الحاقة آية ٣٥-٣٦.

وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾[1]، أي: يستقي من ماء صديد شديد النتانة والكثافة، فيتكرهه، ولا يكاد يبتلعه من شدة نتانته وكثافته.

قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارِ وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد ١٥] والحميم: هو الماء الحار المغلي بنار جهنم، يذاب الحميم ما في بطونهم، وتسيل به أمعاؤهم، وتتناثر جلودهم، كما قال تعالى: ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾[3].

ملابس أهل النار:

قال الله عز وجل: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾[4]. فقوله: ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي: قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل، وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته ووحشة لونه، والقطران قيل فيه: ما يطلى به الجمل الأجرب.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " **النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ** "[5].

---

(١) سورة إبراهيم آية ١٦-١٧ .
(٢) سورة الحج آية ٢٠-٢٢ .
(٣) سورة الكهف آية ٢٩ .
(٤) سورة إبراهيم آية ٥٠-٥١ .
(٥) رواه مسلم (٩٣٤). وقال النووي: « فيه دليل على تحريم النياحة، وهو مجمع عليه، وفيه صحة التوبة ما لم يمت المكلف ولم يصل إلى الغرغرة ».

وقال الله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾[1] ،فقوله ﴿ قُطِّعَتْ ﴾ أي: قدرت لهم على قدر جثثهم، لأن الثياب تقطع على مقدار بدن من يلبسها، وقيل: أنها من نحاس قد أذيب فصار كالنار، والحق إجراء النظم القرآني على ظاهرة.

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " **مِنْهُمْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى حُجْزَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى تَرْقُوَتِهِ** "[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:" **أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ**"[3].

أسرة أهل النار:

قال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ ﴾[4]. أي: فرش من النار، ويلتحفون بألحفة من النار، عياذاً بالله من حالهم.

وقال تعالى :﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾[5]. أي: أطباق وفراش ومهاد وسرادقات، وإطلاق الظلل عليها تهكماً، وإلا فهي محرقة، والظلة تقي من النار كما قال تعالى : ﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾[6] .

عظم أهل النار وبشاعة منظرهم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " **مَا بَيْنَ مَنْكِبِي الْكَافِرِ مَسِيرَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**

(١) سورة الحج أية ١٩ .
(٢) رواه مسلم (٢٨٤٥).
(٣) رواه مسلم (٢١١).
(٤) سورة الأعراف أيه ٤١ .
(٥) سورة الزمر آية ١٦ .
(٦) سورة المرسلات آية ٣٠-٣١ .

لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ "[١]، والمنكب: هو الكتف.

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " ضِرْسُ الْكَافِرِ - أَيُّ: نَابِ الْكَافِرُ - مِثْلَ أُحُدٍ، وَغِلَظ جِلْدِهِ مَسِيْرَةُ ثَلَاثٍ "[٢].

قال الحافظ المنذري: " وقد ورد أن من هذه الأمة من يعظم في النار كما يعظم فيها الكفار، فروى ابن ماجة والحاكم وغيرهم من حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي بُرْدَةَ ذَاتَ لَيْلَة فَدَخَلَ عَلَيْنَا الْحَارِثُ بْنُ أُقَيْشٍ ﷺ فَحَدَّثَنَا الْحَارِثُ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ أَكْثَرُ مِنْ مُضَرَ، وَإِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَعْظُمُ لِلنَّارِ حَتَّى يَكُونَ أَحَدَ زَوَايَاهَا"[٣].

فصل في ذكر بعض ألوان العذاب:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا بْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ اهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فَقَالَ لَهُ: يَا بْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتَ بُؤْسا قَطُّ؟ وَمَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ"[٤].

وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: " مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ:

---

(١) رواه البخاري (٦٥٥٣)، ومسلم (٢٨٥٢).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥١).

قال النووي: « هذا كله لكونه أبلغ في إيلامه، وكل هذا مقدور لله تعالى يجب الإيمان به لإخبار الصادق به ».

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٣٢٣)، وأحمد (٢٢١٧٥)، والحاكم (٢٣٨) وقال: " صحيح على شرط مسلم "، ووافقه الذهبي، وقال المنذري: " وإسناده جيد "، وصححه الألباني في تحقيقه على " سنن ابن ماجة " طبعة مشهور الأخيرة، واكن قد ضعفه في الطبعات السابقة وأيضا في ضعيف الترغيب والترهيب " (٢١٦٨).

(٤) ررواه مسلم (٢٨٠٧).

قال ابن الأثير: « فيصبغ» أي: ينغمس في النار أو الجنة غمسة كأنه يدخل فيها إدخالة واحدة.

مَثَلُ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ"(١). واللهزمة: عظم ناتئ في اللحي، وفي رواية: " يفر منه ويتبعه، ويتقي منه فيلقم يده ثم يطوقه " وقرأ هذه الآية : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾(٢).

وعن النعمان بن بشير ﷺ عن النَّبي ﷺ قال:" إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ وَالْقُمْقُمُ"(٣).

وعن الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾(٤)، قال: " تأكلهم النار يوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فيعودن كما كانوا ".

عذاب هل النار المعنوي:

من عذاب أهل النار المعنوي: أن الملائكة تُبكِّتهم قبل أن يدخلوا منازلهم في النار، كما قال الله تعالى : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾(٥).

ومن عذابهم المعنوي: أنهم يلعن بعضهم بعضًا، ويسب بعضهم بعضًا قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾(٦)، ويتبرأ الكبراء من المستضعفين، ويقول المستضعفون: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

(١) رواه البخاري (١٤٠٣، ٤٥٦٥)، ومسلم (٩٨٨).
(٢) سورة النساء آية ٥٦ .
(٣) رواه البخاري (٦٥٦١، ٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣).
(٤) سورة آل عمران آية ١٨٠ .
(٥) سورة الملك آية ٨-٩ .
(٦) سورة الأعراف آية ٣٨ .

اتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾(١).

ومن عذابهم المعنوي: أنهم يرون الذين كانوا يسخرون منهم ويستهزئون بهم من أهل الإيمان قد فازوا بالرضا والرضوان، ونجوا من غضب الملك الديان، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾(٢).

ومن عذابهم المعنوي كذلك: أنهم يمنعون من الكلام، قال محمد بن كعب: "لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدًا يقولون: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾(٣).

فيقول الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾(٤).. ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾(٥).. فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ ﴾(٦).. فيقولون: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ ﴾(٧)... فيجيبهم الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ

(١) سورة البقرة آية ١٦٧.
(٢) سورة ص آية ٦٢-٦٣.
(٣) سورة غافر آية ١١.
(٤) سورة غافر آية ١٢.
(٥) سورة السجدة آية ١٢.
(٦) سورة إبراهيم آية ٤٤.
(٧) سورة فاطر آية ٣٧.

وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[١]..ثم يقولون: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[٢]..فيجيبهم الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾[٣].. فلا يتكلمون بعدها أبدًا، وذلك غاية شدة العذاب".

قال مالك بن أنس رضي الله عنه: قال زيد بن أسمل في قوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[٤]. قال: صبروا مائة سُنَّة، ثم جزعوا مائة سُنَّة، ثم صبروا مائة سُنَّة، ثم قالوا: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **" يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! خُلُودٌ فَلَا مُوتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ! خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ "**[٥].

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها ومحنها وحسرتها لا نهاية له وأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أيامًا قصيرة وكانت غير صافية كانت مكدرة منغصة، فيقولون في أنفسهم: واحسرتاه كيف أهلكنا

---

(١) سورة فاطر آية ٣٧.
(٢) سورة المؤمنين آية ١٠٦-١٠٧.
(٣) سورة المؤمنين آية ١٠٨.
(٤) سورة إبراهيم آية ٢١.
(٥) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).
قال ابن الأثير: « الأملح: المختلط البياض والسواد، قوله: فيذبح: شبه اليأس من مفارقة الحالتين في الجنة والنار والخلود فيها بحيوان يذبح فيموت، فلا يبقى يرجى له حياة ولا وجود، وكذلك أهل الجنة والنار بعدد الاستقرار فيهما وإخراج من يخرجه الله من النار في اليأس من مفارقة حالتهما وانقطاع الرجاء من زوالها ».

أنفسنا بعصيان ربنا؟ وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أيامًا قلائل؟ لو صبرنا لكانت أنقطعت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العاليمن متنعمين بالرضا والرضوان، فيا لحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم، وبلوا بما بلوا به، ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها، واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلًا لا يزيدون ولا ينقصون، وأن هذا أمر قد قضي وفرغ منه، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١). ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة، بل في ازل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتنشغل بمحقرات الدنيا ولست تدري بماذا سبق القضاء في حقي؟ فإن قلت: فليت شعري ماذا موردي؟؟ وإلى ماذا مآلي ومرجعي؟، وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فإن قلت: علامة تستأنس بها صدق رجاءك بسببها، وهي: أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فإن كلاً مُيسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مُبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيرًا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعك، ولا تقصد شرًا إلا وتتيسر لك أسبابه، فاعلم أنك مقضي عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة الدخان على النار.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢) فأعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين، والله أعلم.

صفة الجنة وأصناف نعيمها:

قال الغزالي -رحمه الله- ما ملخصه: " اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخري، فتأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى، فاستَثِرْ الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستَثِرْ الرجاء بطول الفكر في النعيم المقيم لأهل الجنان، وسق نفسك بسوط الخوف،

(١) سورة مريم آية ٣٩.
(٢) سورة الانفطار آية ١٣-١٤.

وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل، ومحفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان، كأنهن الياقوت والمرجان، ولم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان آمنات من الهرم مقصورات في الخيام.

ثم يُطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ جزاء بما كانوا يعلمون، في مقام أمين ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[1] ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم لا يرهقهم قتر ولا ذلة، بل عباد مكرمون، وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون فهم يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنًا وخمرًا وعسلًا.

فيا عجبًا ممن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ويتهنأ بعيش دونها، والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان، لكان جديرًا بأن تهجر الدنيا بسببها، وألا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون، وفي أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون وهم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر إلى وجه الله مالا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتوه وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون.

---

(١) سورة القمر آية ٥٤-٥٥.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ " يُنَادَىٰ مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوْا فَلَا تُسْقَوْا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوْتُوْا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوْا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأعراف ٤٣] "(١).

فصل في أن الجنة ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال وأن موضع سوط منها خير من الدنيا وما فيها، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِيْنَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ مِصْدَاقُ ذَلِكَ فِيْ كِتَابِ اللهِ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة ١٧] "(٢).

وثبت عن ابن عباس ﷺ أنه قال: "ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء، فليس العسل كالعسل وليس الخمر كالخمر وليس العنب كالعنب ".

ومهما قرأت في وصف نعيمها وخطر نعيمها ببالك من متاعها وعجائبها، فهي أعجب مما قرأت، وأطيب مما خطر على قلبك.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " لَقَابُ قَوْسٍ أَحَدُكُمْ فِيْ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ "(٣) .

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى -:

" وكيف يقدر قدر دار خلقها الله بيده وجعلها مقرًا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه ووصف نعيمها بالفوز العظيم وملكها بالملك الكبير وأودعها

(١) انظر « إحياء علوم الدين » (٢٩٩٧ - ٢٩٩٩) باختصار وتصرف، والحديث رواه مسلم (٢٨٣٧).
(٢) رواه البخاري (٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٧٤٩٨)، ومسلم (٢٨٢٤).
(٣) رواه البخاري (٣٢٥٣)، ورواه مسلم بلفظ : « لغدوة في سبيل الله أو روحة » (١٨٨٢).

الخير بحذافيره وطهرها من كل عيب وآفة ونقص فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب أو فضة، لا من الحطب والخشب وإن سألت عن ثمارها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل ، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن سألت عن أنهارها فإنها ﴿ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ (١)".

(١) سورة محمد آية ١٥ .

بيان صفة أبواب الجنة ودرجاتها وأبنيتها :

أبواب الجنة:

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ بَابٌ مِنْهَا يُسَمَّى الرَّيَّانَ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ"(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : " مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَلِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ "، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ! مَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ ضَرُورَةٍ مِنْ أَيِّهَا دُعِيَ، فَهَلْ يُدْعَى مِنْهَا كُلِّهَا أَحَدٌ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " نَعَمْ وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ" (٢).

درجات الجنة:

وفي " الصحيحين " عنه ﷺ أنه قال: " الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ "، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا غَايَةٌ فِي الْعُلُوِّ وَالارْتِفَاعِ - والله أعلم- والحديث له لفظان هذا أحدهما، والثاني: "إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ"(٣).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يرجح هذا اللفظ وهو لا ينفي أن يكون درج الجنة أكثر من ذلك ونظير هذا قوله في الحديث الصحيح: " إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ "(٤) أي : من جملة أسمائه هذا القدر، فيكون الكلام جملة واحدة في الموضعين، ويدل على صحة هذا أن منزلة نبينا ﷺ فوق

(١) رواه البخاري (٣٢٥٧)، ومسلم (١١٥٢) بلفظ: « في الجنة باب يقال له الريان » .
(٢) رواه البخاري (١٨٩٧، ٢٨٤١، ٣٦٦٦)، ومسلم (١٠٢٧).
(٣) رواه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣)، ومسلم (١٨٨٤).
(٤) رواه البخاري (٢٧٣٦، ٧٣٩٢)، ومسلم (٢٦٧٧).

هذا كله في درجة في الجنة ليس فوقها درجة وتلك المائة ينالها آحاد أمته بالجهاد، والجنة مقببة أعلاها وأوسطها هو الفردوس وسقفه العرش كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: " فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ "(١). كما أفاد ابن كثير -رحمه الله-.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ "(٢).

أبنية الجنة:

قال الله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الزمر ٢٠]. فأخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: " إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ طُولُهَا سِتُّونَ مِيلا ، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ الْمُؤْمِنُ فَلا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضا "(٣).

وعن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ " هَذِهِ قَدْ أَتَتْكَ بِإِنَاءٍ فِيهِ إِدَامٌ وَطَعَامٌ وَشَرِبَ فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَأَقْرَأُ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ "(٤). والقصب هاهنا: قصب

---

(١) رواه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣)، ومسلم (١٨٨٤)، وهو جزء من الحديث قبل السابق.
(٢) رواه البخاري (٦٥٥٦)، ومسلم (٢٨٣١).
(٣) رواه البخاري (٣٢٤٣، ٤٨٨٠)، ومسلم (٢٨٣٨).
(٤) رواه البخاري (٣٨٢١، ٧٤٩٧)، ومسلم (٢٤٣٢، ٢٤٣٣).
والمراد « بالبيت» هنا القصر، و «الصخب» : الصوت المرتفع، و «النصب » : المشقة والتعب.

اللؤلؤ المجوف، قيل: لأنها حازت قصب السبق في التصديق برسول الله ﷺ فكان جزاؤها قصرًا من قصب.

وعن أنس رضي الله عنه أن النَّبي ﷺ قال: "دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِقَصْرٍ مِنْ ذَهَبٍ فَقُلْتُ لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟، قَالُوْا لِشَابٍّ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقُلْتُ: وَمَنْ هُوَ؟ فَقَالُوا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ "(١).

طعام أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢).. أما فاكهة الجنة فقد قال تعالى في وصفها: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ (٣)..

قال ابن جرير -رحمه الله-: ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا ﴾ من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة قالوا: ﴿ هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ في الدنيا، وقيل كذلك ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ قال الحسن "خيار كله لا رَذَل، ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه" وقال تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٤).. أي: لا تكون في وقت دون وقت ولا تمنع ممن أرادها وقال تعالى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ (٥).. قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إذا هَمَّ أن يتناول من ثمرها تدلت له حتى يتناول ما يريد".

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: مَا الْكَوْثَرُ؟ قَالَ: "ذَاكَ نَهْرٌ أَعْطَانِيْهُ الله - يَعْنِيَ: فِي الْجَنَّةِ - أَشَدُّ بَيَاضا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ فِيْهَا

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٢، ٣٦٨٠، ٧٠٢٣، ٧٠٢٥)- ومسلم بمعناه (٢٣٩٥) عن جابر رضي الله عنه.
(٢) سورة الواقعة آية ٢٠- ٢١.
(٣) سورة البقرة آية ٢٥.
(٤) سورة الواقعة آية ٣٢- ٣٣.
(٥) سورة الإنسان آية ١٤.

طَيْرٌ أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الْجُزُرِ "(١). قال عمر: إن هذه لناعمة قال رسول الله ﷺ: " أَكَلَتُهَا أَحْسَنُ مِنْهَا "(٢).

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يَأْكُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَيَشْرَبُوْنَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ طَعَامِهِمْ ذَلِكَ جُشَاءٌ كَرِيْحِ الْمِسْكِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّكْبِيْرَ كَمَا تَلْهُوَنَّ النَّفْسَ "(٣).

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: " كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ احْبَارِ الْيَهُوْدُ فَذَكَرَ أَسْئِلَةَ إِلَى أَنْ قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ إِجَازَةً؟ يَعْنِيْ: عَلَى الصِّرَاطِ. فَقَالَ: " فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِيْنَ" قَالَ الْيَهُوْدِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِيْنَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ " زِيَادَةُ كَبِدِ الْحُوْتِ " قَالَ: فَمَا عَذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: " يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِيْ كَانَ يَأْكُلُ فِيْ أَطْرَافِهَا " قَالَ: شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟، قَالَ: " مِنْ عَيْنٍ فِيْهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيْلا " فَقَالَ صَدَقْتَ(٤).

شراب أهل الجنة:

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾(٥). والكأس: هو الإناء الذي فيه الشراب، ويطلق كذلك على نفس الخمر، كما قال بعضهم:

وكأس شربت على لذة ∴ وأخرى تداويت منها بها

---

(١) الجزر: جمع جزور وهو الجمل.

(٢) حسن صحيح: رواه الترمذي (٢٥٤٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وقال الألباني: « حسن صحيح».

(٣) رواه مسلم (٢٨٣٥).

(٤) رواه البخاري (٣٩٣٨)، ومسلم (٣١٥) بزيادة في اوله وآخره.

قوله «زيادة كبد الحوت» الزيادة هي طرف الكبد وهو أطيبها.

(٥) سورة الإنسان آية ٥- ٦ .

قوله: ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ أي: يخالطها وتمزج به، قال مقاتل: "ليس هو كافور الدنيا، وإنما سمى ما عنده بما عندكم حتى تهتدي له القلوب" وقوله ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أي: يجرونها إلى حيث يريدون وينتفعون بها كما يشاؤون.

وقال تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ ﴾[1].. أي: كأسًا من خمر ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته.

وقال تعالى: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾[2].. والمعني: أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا قال أبو قلابة وإبراهيم النخعي: يؤتون بالطعام فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور، فتضمر بطونهم من ذلك ويفيض عرق من ابدانهم مثل ريح المسك.

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: "جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! تَزْعُمُ أَنَّ اهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُوْنَ وَيَشْرَبُوْنَ؟ قَالَ: "نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ" قَالَ: فَإِنَّ الَّذِيْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُوْنُ لَهُ الْحَاجَةُ وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ أَذًى، قَالَ: "تَكُوْنُ حَاجَةُ أَحَدِهِمْ رَشْحًا يَفِيْضُ مِنْ جِلْوَدِهِمْ كَرَشْحِ الْمِسْكِ فَيَضْمُرُ بَطْنُهُ"[3].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ خِتَامُهُۥ مِسْكٌ ﴾[4]. قال: "هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم لو أن رجلًا من أهل الدنيا أدخل يده فيه

---

(١) سورة الإنسان آية ١٧.

(٢) سورة الإنسان آية ٢١.

(٣) صحيح: رواه أحمد (١٨٧٨٣)، والنسائي في «الكبري» (١١٤٧٨)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٦/٢٩٦ - ٢٩٧): «رواتهامحتج بهم في الصحيح». قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٤١٦): «ورواه البزار، ورجال أحمد والرزار رجال الصحيح غير ثمامة بن عقبة، وهو ثقة»، والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٢٧).

(٤) سورة المطففين آية ٢٦.

ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها ".

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قول تعال: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].. قال:" يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفًا".

ثياب أهل الجنة: قال تعالى : ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾[2]. وقال تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾[3].

قال جماعة من المفسرين: " السندس مارق من الحرير والإستبرق: ما غلظ منه" وقال طائفة: " ليس المراد به هو الغليظ ولكن المراد به الضيق " وقال الزجاج: "هما نوعان من الحرير وأحسن الألوان: الأخضر والبن اللباس الحريرة فجمع بين حسن منظر اللباس والْتِذاذ العين به بين نعومته والْتِذاذ الجسم به " .

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: " **أَهْدَى لِرَسُوْلِ الله ﷺ ثَوْبَ حَيَّرَ فَجَعَلُوْا يَعْجَبُوْنَ مِنْ لِيْنِه فَقَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ : " تَعْجَبُوْنَ مِنْ هَذَا؟ ، لَمَنَادِيْلُ سَعْدِ ابْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا** "[4]. أي: أن المنديل الذي يمسح به يديه في الجنة أحسن من حلل الملوك.

وقال ﷺ : " **تَبْلُغَ الحِلْيَةُ مِنْ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوْءُ** "[5] .

---

(١)سورة المطففين آية ٢٧- ٢٨ .
(٢)سورة فاطر آية ٣٣ .
(٣)سورة الكهف آية ٣١ .
(٤) رواه البخاري (٣٨٠٢) ومسلم (٢٤٦٨).
(٥) رواه مسلم (٢٥٠).

وعند مسلم من حديث أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلا يَفْنَى شَبَابُهُ "(١)..

صفة أهل الجنة:

عن معاذ بن جبل ﷺ أن النَّبي ﷺ قال: " يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ جُرْدًا مُرْدًا كَأَنَّهُمْ مُكَحَّلُونَ أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِيْنَ "(٢) .

قوله " جردًا " أي: بدون شعر على أجسادهم وقوله " مردًا " بدون لحية.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ : "عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ ، سِتُّونَ ذِرَاعًا "(٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : " إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لاَ يَبُولُونَ وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ وَلاَ يَتْفِلُونَ وَلاَ يَمْتَخِطُونَ ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ الأَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ"(٤) .

وأما الأخلاق فقد قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (٥).

فأخبر عن تلاقي قلوبهم وتلاقي وجوههم، وفي حديث " الصحيحين " " لَا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيا "(٦) .

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٦).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٢٥٤٥) وقال « حسن غريب » ورواه احمد (٧٨٧٤، ٨٣١٩، ٩١١١، ٢١٦٠) وحسنه الألباني.

(٣) رواه البخاري (٣٣٢٦، ٣٣٢٧، ٦٢٢٧) ومسلم (٢٨٣٤، ٢٨٤١).

(٤) روايات للحديث السابق عندهما والأولو : العود الهندي.

(٥) سورة الحجر آية ٤٧ .

(٦) رواه البخاري (٣٢٤٥، ٣٢٤٦) ومسلم (٢٨٣٤) وهو رواية للحديث السابق.

أدنى أهل الجنة منزلة:

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: " إِنَّ مُوْسَىٰ سَأَلَ رَبَّهُ: مَا أَدْنَىٰ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَقَالَ لَهُ" أَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَيَقُوْلُ أَيْ رَبِّ! كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَىٰ أَنْ يَكُوْنَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوْكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُوْلُ: رَضِيْتُ رَبِّ فَيَقُوْلُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيْتُ رَبِّ فَيَقُوْلُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ فَيَقُوْلُ رَضِيْتُ رَبِّ فَيَقُوْلُ: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُوْلَئِكَ الَّذِيْنَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ "(١).

نساء الجنة:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾(٢).

جمع الله سبحانه وتعالى في هذه الآية بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه والأزواج المطهرة: هي التي طُهِّرت من المحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، وطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة وطُهِّر لسانها من الفحش والبذاء وطهر طرفها من أن تطمع به إلى غير زوجها.

---

(١) رواه البخاري بمعناه مختصرًا (٦٥٧١) ومسلم (١٨٩).
(٢) سورة البقرة آية ٢٥.

وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[١] ، والحور: جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين وقال مجاهد: الحوراء التي يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون والصحيح: أن الحور مأخوذ من الحور في العين وهو شدة بياضها مع قوة سوادها فهو يتضمن الأمرين.

وقال تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ ﴾[٢] . أي: قصرَّن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم وقوله : ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ قال ابن عباس وسائر المفسرين " مستويات على سن واحد وميلاد واحد وبنات ثلاث وثلاثين سَنَةَ ".

وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قِيدِهِ - يَعْنِي : سَوْطَهُ - مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا "[٣]. والنصيف هو الخمار أي غطاء الرأس، وعن أبي هريرة ﷺ عن النَّبي ﷺ " إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَإِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ "[٤].

النظر إلى وجه الله عز وجل:

قال الله تعالى :﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[٦] . وهذه الزيادة: هي النظر إلى

(١) سورة الدخان آية ٥٤ .
(٢) سورة ص آية ٥٢ .
(٣) متفق عليه وقد سبق تخرجه (ص: ١٤٣، وص: ٢٤٧).
(٤) رواه مسلم (٢٨٣٤).
(٥) سورة القيامة آية ٢٢-٢٣ .
(٦) سورة يونس آية ٢٦ .

وجه الله عز وجل والحسني: هي الجنة.

عن صهيب رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: " إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ وَنَادَىٰ مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيْدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ فَيَقُوْلُوْنَ: مَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ اللهُ مَوَازِيْنَنَا وَيُبَيِّضْ وُجُوْهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ ! قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُوْنَ إِلَيْهِ فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ " (١).

وهذه هي غاية الحسنى ونهاية النعمة وكل ما فصلناه من النعيم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء.

كما أنه تذكر الموت يحمي المؤمن من التردي ويوقفه عند حدود الله فلا يتعداها، لأنه إذا علم أن الموت أدنى من شراك نعله وأن ساعته قد تكون بعد لحظات فكيف تسول له نفسه أن يزل أو يتمادى في المعصية لذلك قال رسول الله ﷺ : " أَكْثِرُوْا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ " من رواية أبو هريرة رضي الله عنه (٢).

نسأل الله الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد. فإن الغفلة عن الآخرة هي عائق كل خير وبر وجالب لكل فتنة وشر. لذلك قال النَّبي ﷺ : " زُوْرُوا الْقُبُوْرَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْمَوْتَ -وَفِي رِوَايَةٍ- فَإِنَّهَا تُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ " (٣).

هذا للرجال ، فذكر الموت والآخرة مقامع للشهوات وموقظات من الغفلات واعلم أنه لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين الأول النظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها وخستها وألم المزاحمة عليها والحرص عليها وما في ذلك من النكد ثم الزوال والانقطاع.

(١) رواه مسلم (١٨١).
(٢) رواه الترمذي في ٢٢٨٤ والنسائي في الصغرى ١٨٠٠
(٣) سُنن ابن ماجة ..

فمطالبها لا تنفك من هم قبل حصولها وهم حال الظفر بها وحزن بعد فواتها النظر الثاني النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها لابد ودوامها وبقائها وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات فهى خيرات كاملة دائمة ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ فإذا تأملت في النظر إن آثرت الآخرة وزهدت في الدنيا والكل مجبول على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة إلا إذا تبين فضل الأجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى والأفضل. فإذا فضل الناقص كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له وإما لعدم رغبة في الأفضل وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة.

أنتهينا من كيفية صلاح القلوب بالقرآن والتوبة والآن ما هي علامات صحة القلب وصلاحه؟!.

علامات صحة القلب:

* من علامات صحة القلب، ومحبة الرب تبارك وتعالى ذكر الله على الدوام، فإن القلوب كالقدور، وألسنتها مغارفها، فاللسان يخرج ما في القلب من حلو أو حنظل، فإذا إمتلأ القلب بحب الله تعالى نطق اللسان بالذكر، وإذا امتلأ بغير ذلك من التعلق بغير الله نطق اللسان بالغيبة والنميمة والفحش والبذاء.

* من علامات صحته أنه لا يزال يلحُّ على صاحبه حتى ينيب إلى الله، ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له، ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا رضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن، وإليه يسكن ويأوي، وبه يفرح وعليه يتوكل، وبه يثق، وأياه يرجو، ومنه يخاف، فذكره قوته وغذائه، ومحبته والشوق إليه حياته، والإلتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواءه.

* ومن علامات صحته أن يتعب الجسد في الخدمة ولا يملُّ القلب، فمن أحب الله أحب خدمته، وصارت قوت قلبه، وغذاء نفسه، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي

حتى ترم قدماه فيقال له في ذلك قال : " أَفَلَا أَكُوْنُ عَبْدا شَكُوْرًا " (١).

* من علامات صحته أن يحن صاحبه إلى الخدمة، ويشتاق إليها، أكثر من حنين الجائع إلى الطعام والشراب، فإن العبد إذا ذاق حلاوة معاملة الله تعالى بالمداومة على الطاعات، أحب الطاعة، فلا يستغني عنها، فإذا وجد نفسه معطلًا في غير طاعة الله، ضاق عليه صدره، ووجد دافعًا يدفعه من داخله إلى طاعة الله تعالى .

*ومن علامات صحته أنه إذا دخل في الصلاة ذهب عنه همَّه وغمَّه بالدنيا، ووجد فيها راحته ونعيمه، كما قال ﷺ " جَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنَيَّ فِي الصَّلَاةِ " (٢) .

*ومن علامات صحته أن يكون أشح بوقته أن يذهب في غير طاعة رسول الله ﷺ، قال " مَنْ قَالَ سُبْحَانَ الله الْعَظِيْم وَبِحَمْدِهِ ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَهُ فِي الْجَنَّة"(٣)، فانظر إلى مضيِّع الساعات كم يفوته من النخيل!! وقال ﷺ : " أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّكُمْ تُؤْجَرُوْنَ عَلَيْهِ، أَمَّا أَنِّي لَا أَقُوْلُ (الٓمٓ) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ عَشَرَ، وَلَامٌ عَشَرَ، وَمِيْمٌ عَشَرَ، حُسْنَةٌ " (٤).

فسليم القلب الذي يستقبل هذا الكلام استقبالًا سليمًا لا يسعه إلا أن يملاء أوقاته بطاعة الله، ويبخل بالوقت أن ينفق في غير طاعة الله، فيكون أشح بذلك من أشد الناس بخلًا بماله.

*ومن علامات صحتهَ أن يكون إهتمامه بتصحيح العمل أكثر من إهتمامه بالعمل ذاته، فإن العبرة ليست في كثرة العمل، ولكن العبرة في حسن العمل، وحفظه مما يحبطه، فيحرص على الإخلاص والمتابعة في كل عمل، يشاهد منه الله عليه، وتقصيره في حق ربه تبارك وتعالى، ثم لا يمن بالعمل على ربه، أو على الناس

(١)رواه البخاري ومسلم .
(٢)صححه الألباني في صحيح الجامع .
(٣)رواه الترمذي .
(٤)حسنه الألباني في صحيحه .

أو يصيبه بذلك العمل عجب أو كبر.

*من علامات صحته أنه إذا فاته ورد أو طاعة من الطاعات، وجد لذلك حسرة أكثر مما يجد الحريص إذا فقد أهله وماله، لعلمه أنها خسارة في الآخرة، فيتألم لفوات الخير فيها.

*ومن علامات صحته أن يجعل العبد همه واحدًا، يجعله في طاعة الله تعالى، قال ﷺ " مَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ " (١) .

*من علامات صحته أن يأنس بالله تعالى، ويستوحش من غيره، إلا عبد يدل عليه، أو يذكره به، فمن كان فاضلًا في نفسه أحب الخلوة، وإذا خلا أنس بالله تعالى وسعد بالله تعالى والعكس بالعكس.

*ومن علامات صحته أن يكون كلام الله تعالى والكلام عنه أحب شيء إلى قلبه، كما قال بن مسعود رضي الله عنه أنه قال "مَنْ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ، فَلْيَعْرِضْ نَفْسَهُ عَلَى الْقُرْآنِ، فَإِنْ أَحَبَّ الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ، فَإِنَّمَا الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ ".

فيا من تفتش عن صلاح قلبك ها هي علامات صلاحه، ويا من تبحث عن الحياة الطيبة ها هي خطوة من الخطوات إلى الحياة الطيبة قد مهدت أمامك، فسر على الدرب ليعلم الله منك صدق الطلب، ومن صدق الله صدقه الله، وكما أن للقلب علامات لصلاحه، فإن هناك علامات لمرضه .

من علامات مرض القلب :

١_ أن يتعذر على العبد ما خلق له من معرفة ربه، ومحبته والشوق اليه والإنابة اليه، وإيثار ذلك على هوى نفسه ، فيقدم العبد حظه وشهوته على طاعة الله ومحبته، وكلما هوى شيئًا ركبه، فيحيا حياة البهائم لايعرف ربه، ولا يعبده بامره ولا

(١)رواه ابن ماجه وابن حبان .

نهيه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

٢ ـ ومن علامات مرضه أن صاحبه لاتؤلمه جراحات المعاصى، فالقلب الصحيح يتوجع بالمعصيه ويتألم لها، فيحدث له ذلك توبة وإنابه إلى ربه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[3] أي ذكروا عظمة الله، ووعيده فأتبعوا الذنب توبة.

٣ ـ ومن علامات مرضه أن صاحبه لا يؤلمه جهله بالحق، فان القلب السليم يؤلمه جهله بالحق، وورود الشبهات عليه، فالجهل من أكبر المصائب التي يتألم بها من كان له قلب حي، سئل أحد العارفين أي شئ أقبح من الجهل؟ قال الجهل بالجهل، فصدق لأنه يسد باب العلم بالكلية.

٤ ـ ومن علامات مرضه عدم الحرص على ما ينفعه. وميله إلى السموم الضارة، كما يعرض اكثر الناس عن سماع القران الذي أخبر عنه ربنا تبارك وتعالى، فقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4]، ويستمعون إلى الغناء الذي ينبت النفاق في القلب، ويحرك الشهوات.

٥ ـ ومن علامات مرضه أن يطمئن صاحبه إلى الدنيا، ويرضى بها ولايحس فيها بغربه، ولا يرجو الآخرة، ولا يسعى لها سعيها، وكلما صح القلب من مرضه إستعد للآخرة وهام في الرحيل اليها.

---

(١) سورة محمد آية ١٢
(٢) سورة الأعراف آية ٢٠١.
(٣) سورة آل عمران آية ١٣٥.
(٤) سورة الإسراء آية ٨٢.